

الأعمال
الدينية

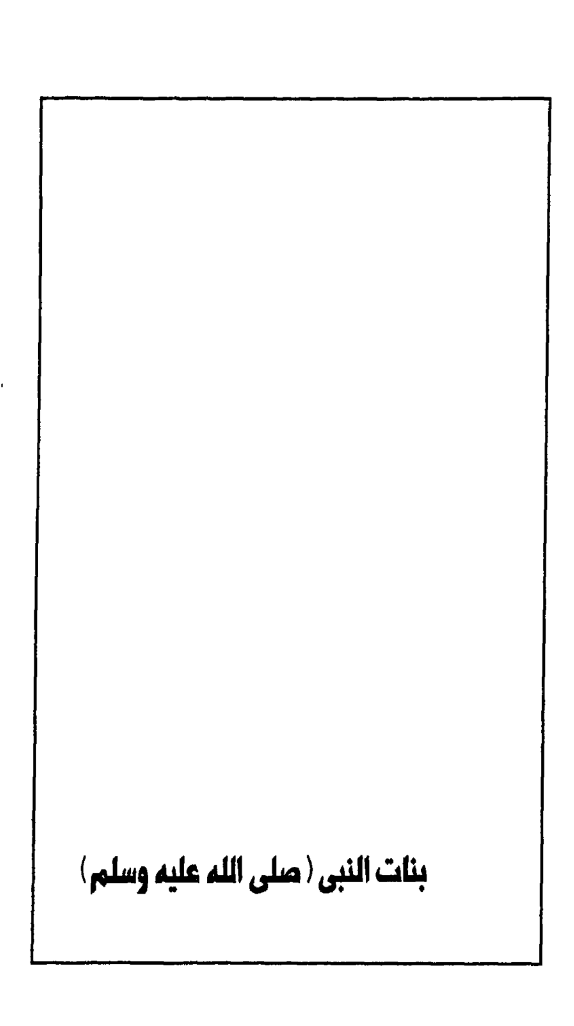


الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

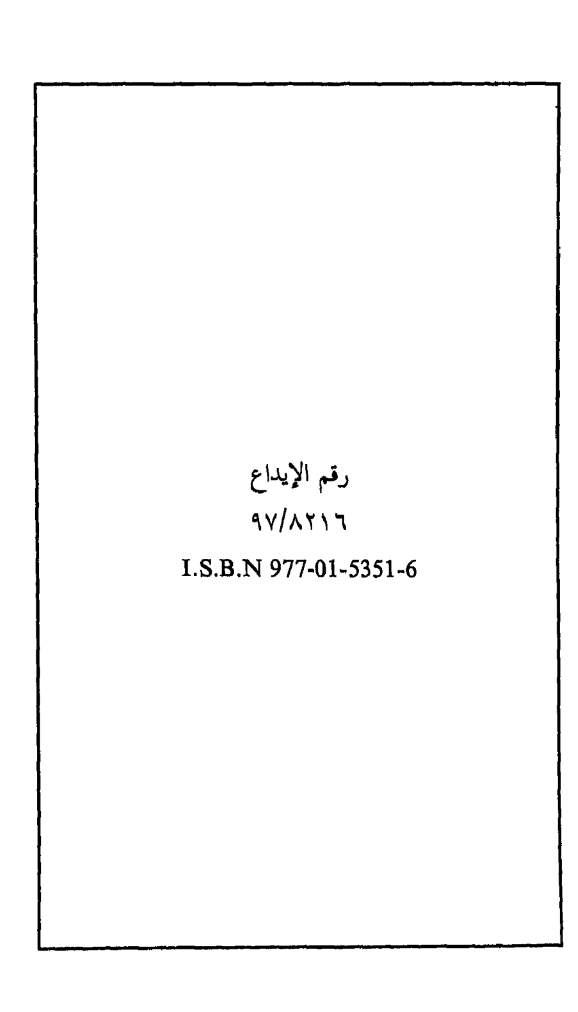
الدكتورة بنت الشاطىء

بنات النبي
عليه الصلاة و السلام





بنات النبى (صلى الله عليه وسلم)



رقم الإيداع

٩٧/٨٢١٦

I.S.B.N 977-01-5351-6

بنات النبى

(صلى الله عليه وسلم)

د. عائشة عبدالرحمن

(بنت الشاطئ)



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

بنات النبى

صلى الله عليه وسلم

د. عائشة عبدالرحمن

الغلاف

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

مقدمة

تمضي القرون والادهار ، وشخصية « محمد ـ صلى الله عليه وسلم » موضع اهتمام الكتاب والدارسين على اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم ،يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة الجديدة أبدا ، ويلتمسون لديها مايجلو أسرار العظمة الانسانية كما تمثلت فى بشر رسول ، بهر الدنيا وصنع التاريخ ، وانه ليأكل الطعام ويمشى فى الاسواق

ذلك لأن الانسانية ـ على كثرة من عرفت فى تاريخها الطويل من رسل وأنبياء ، وقادة وأبطال ـ ستظل أبدالدهر ترنو الى هذا النبى العربى الذى لم يحاول قط أن يبرأ من بشريته ، بل أصر على الاعتراف بها فى اعتزاز مؤثر ، لايعرف التاريخ له مثيلا

وحين تختلف بالناس الاديان ، وتفرقهم المذاهب والملل والاهواء أحزابا وشيعا ، فان البشرية ستظل مابقيت ، تباهى بأن يكون منها نبى حمل الى الدنيا رسالة التوحيد التى رفعت عنها وصمة الوثنية البلهاء ، وجاء الناس بدين الاسلام الذى لم يستكثر على بشر منهم ، أن يرقى الى منزلة الانبياء

وهذا الايمان العميق بعظمة البشر الرسول ، هو الذى وجه دراساتى للجوانب التى اخترتها ـ بحكم الجنس ـ من شخصيته الفذة : فكان كتابى عن « آمنة بنت وهب » محاولة لفهم جانب البنوة فى الوليد اليتيم الذى وضعته

امرأةمن قريش تأكل القديد ، كما تضع كل أنثى من البشر ليكون ـ بعد أن يبلغ أشده ـ المصطفى المبعوث بآخر رسالات السماء

وكان كتابى عن « نساء النبى » محاولة لدرس شخصية الزوج الرسول ، اذ يمارس حياته الزوجية فى بيته ببشرية سوية ، لم تجردها النبوة من العواطف والمشاعر والرغبات ، ولم تنكر على نسائه ـ أمهات المؤمنين ـ نوازع الفطرة وأهواء الجنس وميراث حواء !

وهذا كتابي عن «بنات النبى » أحاول فيه أن أستجلي ملامح شخصية الاب الرسول ، وأن أعرض صورة أمينة لعاطفة الابوة ، ممثلة فى شخص نبى انسان ، سواه الله بشرا وأراد له أن يكون والدا لبنات أربع ، فى بيئة وأدت الاناث وفتنت بالبنين

وبعد فأحسب أن قارئى يقدر أن لموضوع هذا الكتاب من الجلال والمهابة والحرمة عند مثلي،مايحميه من شطط القلم وجموح الخيال ، ومن ثم لا أرانى فى حاجة الى أن أؤكد أن مادة الكتاب تاريخية أصيلة ، قدأخذت من مصادرها الاولى، وأن ليس لى من عمل فيه سوى جهد البحث وأمانة النقل وأسلوب التناول والاداء

لكنما يعنينى هنا أن أقول : انه اذا كان بعض قومي يتحرجون من التحدث عن الجانب البشرى فى حياة الرسول زوجا وأبا ، فانى لأحمد الله على أن عصم ايمانى من مثل هذا التحرج المنكر الذى يشعر بأن من أنباء الحياة الخاصة لخاتم الانبياء ، مايحتاج الى ستر أو كتمان ! ومعاذ الايمان بعظمة الرسول الكريم الذى تلا علينا من هذه الانباء ، آيات قرآنية يتعبد بها منا من يؤمن بالله ، ويصدق برسالة محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى ، عليه الصلاة والسلام

بنت الشاطىء

الأبوة فى المجتمع العربى

١ ـ الأبوة فى الجاهلية
٢ ـ الأبوة العربيــة فى الرسالة المحمدية وفى شخص الرسول الكريم

الابوة فى الجاهلية

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبى صلى الله عليه وسلم، بدأت أقرأ فى كتب السيرة والحديث والتاريخ ، لأستخلص منها مايتصل بهؤلاء الكريمات اللواتى شرفن بأمجد أبوة عرفتها البشرية منذ كانت • غير أنى ما كدت أمضى فى القراءة ، حتى وجدت أنى لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع، اذا لم أبدأ قبل كل شىء بدراسة متفرغة لأبوة محمد ، وهى دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب الى خبرة دقيقة بالمجتمع العربى ومعرفة مكان الأبوة فيه ، لكى يكون لنا من هذا كله مايجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا ادراكا لنواحى السمو والجلال فيها

والحديث عن الأبوة فى المجتمع العربى ، حديث يطول ، وأخشى اذا أنا أرسلت قلمى يكتب فيه ملء عنانه ، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الاصيل الذى يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه فى أجزاء ثلاثة : ألم فى أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، وأنتقل منها الى هذه الأبوة كما تبدو فى الرسالة المحمدية ، ومن ثم فى شخص الأب الرسول

أما الأبوة العربية كماتصورهاالحياة الجاهلية ، فربما بدا لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكننا اذا ذكرنا أن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج قبل أن يبعث بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الاربع جميعا قد ولدن فى الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، اذا ذكرنا هذا ثم أضفنا اليه مانعرف من احتكام الوراثة وأثر البيئة ، بدت لنا صلة « الأبوة العربية فى الجاهلية » بموضوعنا ، قوية وثيقة الى حد لايسمح لنا بتجاهلها أو التغاضى عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن«محمد» فى أبوته

ذلك لأنه اذا كان المنهج العلمى ، يأبى علينا أن نبتر شخصا من بيئته التى صنعته ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه وأجداده الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل،فنحن أولى بألا نقترف هذا الخطأ ، فى الحديث عن بشر رسول ، طالما اعترف بفعل الوراثة فى مثل قوله : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » أو قوله : « ... لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الارحام الطاهرةمصفى مهذبا،لاتتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » كما طالما اعتز بأصله القرشى ، وباهى بأنه ابن امرأة من قريش تأكل القديد

وهذه الفطرة البشرية السوية فى رسولنا ، التى تعدها الانسانية ـ كماقلت غيرمرة ـ علىاختلافالاديانوالاجناس، وعلى مر الأحقاب والأدهار ، من آياتعظمته وأسراربطولته،

هذه الفطرة السوية هى التى تجعلنا نرجع بالحديث عنأبوة «محمد» الى ماضقريبوبعيد،ملتمسين منصميمالبيئةالعربية منذ جاهليتها ، الاصـــول الاولى للابوة التى تجلت لنا فى « محمد بن عبد الله » قبل مشرقالاسلام ، ثم بعد أناصطفاه الله نبيا رسولا

▭

والملحظ الاول الذى نسجله هنا ، هوأن المجتمع العربى فى الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللابوة فى هذا النظام مقام جليـــل وشـــأن ذو خطر ، ذلك لان القبيلة فى أصلها لاتعدو أن تكونفروعا تكاثرت من جــذر واحــد هو الاب الذى تنتمي اليــه . ثم ، بمضى الزمن تنمــو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو مانرى فى انفصال الخلايا الحيوية أو الاجتماعية عن أصلها الاول ، عندما تتهيأ لها مقومات الحياة مستغنية عن ذلك الاصل

ويحدث أحيانا ، وبخاصــة فى الاطوار البــدائية ، أن تنتمي القبيلة الى الام ، وهوطور عرفته العربية فىجاهليتها القديمة ، وبقيت منه آثار فيهــا حتى بعــد أن تطورت الى الدور الابوى

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلةـ الذى هو فى الواقع أبوها الكبير ـ ملكا غير متوج ، وحاكمــا لايعصى له أمر ، فمن حدثته نفسه بالخروج على سـلطانه ، كان الخلع والطرد والنبذ من مجتمع القوم

وما بنا من حاجة الى التماس الشواهد على ما كان للاب من مكانة فى الجاهلية العربية ، فما ذاك بالامر الذى يخفى،

ولنا أن نقول بعد هذا ان لقريش على وجه الخصوص ، أن تدعى فضل تمثيلها لأعز ماعرف المجتمع العربى من تكريم للابوة ، ان كانت هى القبيلة التى ذهبت بأكثر ما للعـرب فى الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه والشرف ، ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى غيرها • فلا ريب أن اعتزت بالاصـول والآباء ، وحرصـت على نقاء النسب وتخير الارحام ، وآية ذلك مانرى من تسجيلها لنسب بطونها وأفخاذها ، ماضية به الى آلاف السنين ، لم يفتها منه أم ولا أب ، على مانعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشـية ، والعهد بهم جد قديم • ولمن شـاء أن يطعن فى صحة هـذا المروى عن سياقة النسب من قريش الى اسماعيل جـدهم الاعلى ، فلن نبذل جهـدا لننفى شـيئا من هذا أو نثبته، ولا علينا هنـا أن نجادل المنكرين فى الذى زعمـوا من أن سـلسلة النسب هذه من صياغة الرواة واختراع كتـاب السيرة فى عصور متأخرة ، بعد الذى تم لقريش من مجد الدهر باختيار الرسول العربى منها ونزول القرآن المعجز بلسانها ، وانما حسبنا أن نقول ان حرص القوم على سياقة النسب ، يحمل وحده دليل احتفالهم بالاصـول وعنايتهم بالاعراق ، وليس يضعف هذا الدليل أن تكون الانساب قد اخترعت بأخرة ، بل ان هذا الاتهـام ـ ان صـدق ـ أبلغ فى الدلالة على ما للابوة من خطر فى تقدير القوم ، والا لما عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الانساب يسدون بها الثغرات التى تركتهـا أنامل الزمن فى تاريخ العرب الطويل

والحـق أن الاعتزاز بالأبوة كان أظهـر مايميز المجتمع

العربى ، وأن تكريم الآباء قد كان تقليدا متبعا ، فمن ارتاب فى هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الدينى بقصة جدهم الذبيح الذى جاد بالحياة طاعة لابيه ، وتجنيبا له من ذنب عصيان الخالق ، ثم يختمون تاريخهم الديني فى الجاهلية، بقصة بنى عبد المطلب الذين ماترددوا فى طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة ، لو بلغوا عشرة ، بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم الى الكعبة حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذبيح

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للاوثان بعد أن دعاهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى التوحيد ، الا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين

وما نقموا على « محمد ، صلى الله عليه وسلم » شيئا كما نقموا عليه أن شتم آباءهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ،بل ان « أباطالب » نفسه ـ عم النبى وكافله ـ ود لو تبع ابن أخيه ، لولا أن وجد غضاضة فى مفارقة دين آبائه ، فقال معتذرا : « أى ابن أخى، انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لايخلص اليك بشىء تكرهه ما بقيت » ـ السيرة ١/٢٦٤

وكذلك فعلت العرب البائدة فى سالف الحقب وغابر الدهور : ردوا رسلهم بمثل ماردت به قريش رسولها ، فقوم عاد قالوا : « أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ »

وقوم شعيب قالوا : « ياشعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ... انك لأنت الحليم الرشيد ! »

واتل عليهم نبأ ابراهيم « اذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون؟ قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال : هل يسمعونكم اذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون »

هم الآباء دائما : سنتهم عبادة ، ودينهم ميراث، واتباعهم فرض محتوم

□

ونظام القبيلة ، الذى جعل للأبوة مثل تلك المكانة فى المجتمع العربى القديم ، هو نفسه الذى جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الانجاب ويباهون بكثرة الولد ، اذ كانت القوة والكثرة ، هما مناط العزة والمنعة ، وقوام الحياة فى مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش . فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمة ما بعدها نعمة ، كما صار تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ

ونذكر هنا ــ للمرة الثانية ــ حديث «عبد المطلب» جد الرسول ، وقد انتهت اليه سقاية الحجيج وراثة عن جده « قصى » فكان يلقى فى سبيل ذلك كل المشقة والعناء .

واذ يطيل التفكير فيما تناقله الرواة عن بئر زمزم التى طمرت تحت رمال الزمن ، تلح عليه الرؤى فى أن يمضى للتنقيب عن البئر المباركة التى بثت الحياة فى الوادى الأجرد ، منذ فجرها الله للجد الأعلى اسماعيل . فيمضى « عبد المطلب » ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره، فما كاد يجىء بالمعول ويبدأ فى الحفر حتى قامت اليه قريش،

تقسم ألا تتركه يحفر فى ذلك المكان الذى شاءت الاقدارأن يقع بين الوثنين الكبيرين : « اساف ونائلة » وأدرك عبد المطلب أن قريشا انما استضعفته لقلة ولده ، فنذر لئن ولد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه ، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ، ثم تلا ذلك ما هو ذائع معروف من انطلاقه ببنيه العشرة الى الكعبة ، وخرج السهم على عبدالله ـ أصغر بنيه ـ فهم بذبحه لولا أن كان الفداء !

وأعود فأقرر هنا ماذكرته آنفا ، من أن الشك فيحدوث هذه القصة ، لاينفي بحال ما ، دلالتها الصادقة الامينة ، على الاعتزاز بكثرة الولد فى مجتمع القبائل ، حيث لا أمل لاحداها فى البقاء ، اذا لم يكن لها من أبنائها من يمنعونها ويحمون حماها

▭

ولا اريد أن أدع الحديث عن الابوة والبنوة عند العرب الأولين ، دون أن أعرض هنا مشهدا انسانيا مؤثرا ، سجل به القرآن ما لعاطفة الابوة من سلطان قاهر لاقبل لبشر بمقاومته ـ حين يدعو الواجب ـ ولو كان من الانبياء المصطفين . ذلك هو مشهد « نوح » عليه السلام ، حين وقف ومن اتبعوه فى سفينته وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ينادى ولده الذى اعتزله وأبى أن يصدق برسالته:

« يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى الى جبل يعصمنى من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل : يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى . وغيض الماء وقضى الأمر

واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين • ونادى نوح ربه ، فقال : رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين • قال : يانوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلين • قال : رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين • قيل : يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك »
هود : ٤٢ : ٤٨

فيا للابوة الرحيمة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ منه أو تدعو عليه

ويا للآيات المعجزة ، تأبى أن تجحد بشرية الانبياء أو تبرئهم من نوازع الغريزة الابوية التي لولاها لما قامت حياة

ويا للاله الكريم ، يصغى الى دعاء الاب للابن الضال ، فلا يجد - سبحانه - فى هذا المظهر الانسانى ما يستحق به نوح أن ينحى عن مكانه كنبى يدعو الى الحق ، بل يكتفى بأن يعظه، ثم يأذن له أن يهبط بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه !

وسلام على ابراهيم اذ يدعو ربه : « رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام • رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم »

▭

هل لنا أن نقول بعد هذا كله ، ان علاقة الآباء بالابناء فى المجتمع العربى ، بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا

العصرى الحديث ، الذى يميل بالتدريج نحــو الانفصــام ، ويتخلى شيئا فشيئا عن تقاليده الموروثة فى الابوة والبنوة ، فيعترف للآباء بحقهم فى تحــديد النسل ، كمــا يعترف للابناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال ، بل ربما اعترف لهم أحيانا بأنهم أحق بالحياة بما هم أصحاب الغــد ، وعلى الآباء أن يخلوا لهم الطريق ؟

وقلما يفتش مجتمعنا العصرى عن آباء الرجل وأجداده، بل انه ليميل الى تحطيم الفوارق الاجتماعية بين الطبقات ، على حــين كان المجتمع العــربى يعتز بكرم الابوة وعــراقة الاصــل وشرف المنبت ، ويرى فى هذا ومثله مدعاة للفخر الذى مابعده فخر



الابوة العربية

فى الرسالة المحمدية ، وفى شخص الرسول

أشرق نور الاسلام ، حين اختار الله من بين العرب من يبعثه بآخر رسالات السماء ، فبدا منذاللحظة الاولى ، أنها تدعو الى نبذ دين الآباء ، وتعلن الحرب على الاصنام والاوثان التى ظلوا لها عاكفين

وما كانت قريش لتأبى أن تصغى الى فتاها الامين ، لولا أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد ، ولا يرضى بما دون القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء :

« واذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ »

على أن هذا لايجوز أن يصرفنا عما حف بالابوة فى الرسالة المحمدية من جلال ، أو ينسينا أن الاسلام جعل برالوالدين تاليا للتوحيد ، ولم يأذن للابن بعقوق الابوين حتى مع الشرك ، بل أقصى ما يباح اذ ذاك هو ألا يطيعهما فى ذلك، دون أن يهدر حقهما عليه فى أن يصاحبهما فى الدنيا معروفا

وعرض القرآن كذلك للبنوة ، فصرح فى مواضع شتى بأن البنين زينة الحياة الدنيا ، وعدهم من النعم الكبرى التى أنعم بها على عباده :

« يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »

« ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ثم يطمع أن أزيدا ، كلا ! انه كان لآياتنا عنيدا »

ويقال هنا ان القرآن الكريم حذرنا من الافتتان بالابناء، لما يعلم من اسرافنا فى حبهم والتعلق بهم :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة »

« انما أموالكم وأولادكم فتنة »

لكن هذا التحذير ليس - فى الواقع - الا اعترافا صريحا بما للبنين علينا من سلطان تعز مقاومته ، وما لهم فى قلوبنا من حب قد يعمى ويصم

□

والعلاقة بين الابناء والآباء تأخذ فى الرسالة المحمدية وضعا ساميا ، بحيث لايهدرها اختلاف الدين ولا يفصمها تباين العقيدة • وبلغ من تقدير القرآن الكريم لقوة هذه العلاقة أنه فى تحذير الناس من هول اليوم الآخر ، وصفه بأنه اليوم الذى فيه « يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »

« يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم • يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »

وقد تلقى محمد رسالة ربه ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الاعلى فيهم ، وقد مضى ينظم حياة الجماعة الاسلامية بوحى من ربه ، ويضع لها التشريع الصالح على هدى الكتاب السماوى الكريم ، فرأى العرب من فعاله صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا من أحاديثه ، ما لمس أعمق مشاعر الابوة فيهم ، واستثار أنبل ما فى نفوسهم التى جبلت على توقير الآباء ورعاية الابناء

روى عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس »

وقدم الرسول بر الوالدين على الجهاد فى سبيل الله : « جاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم فقال : جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوى يبكيان. فقال : ارجع اليهما فاضحكهما كما أبكيتهما »

قد يقال هنا ان قلبه الرحيم رق لبكائهما ، لكننا نسمع أن رجلا جاءه يسأل الاذن فى الجهاد ، فسأله الرسول : ألك أبوان ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد

وحدث الصحابى معاوية بن جاهمة السلمى قال : «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة .قال: ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم . قال : ارجع فبرها

« ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يارسول الله ، انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة ، قال: ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم يارسول الله . قال : فارجع اليها فبرها

« ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ماقلت،فقال : ويحك ! الزم رجلها فثم الجنة ! »

نسمع هذا ومثله ، فنرى الاصرار النبيل على وضع البر بالوالدين قبل الجهاد فى سبيل الله ، ورفع الابوة الى منزلة لاتساميها منزلة ، اذ تكون الجنة تحت أقدامها

عن أبى أمامة أن رجلا قال : «يارسول الله،ماحق الوالدين على ولدهما ؟ قال : هما جنتك و نارك »

وانه لحق لايهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيته قائلة : ان أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك »

وكذلك لاينقطع هذا البر بالموت : عن مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ، الصلاة عليهما،والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لاتوصل الا بهما ، واكرام صديقهما »

وانما استحقت الابوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل وتحتمل فى سبيل الابناء ، ولماتمنح من حب صادق وحنان خالص ، ولأنها فى جوهرها بذل وتضحية وايثار ، ورسول الله فى انسانيته الرفيعة أكرم من يقدر هذا وينفعل به .

حدثوا أن سبيا قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة « فاذا امرأة منهم قد تحلب ثديها ، اذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى

النار ؟ قالوا : لا ، وهي تقدر ألا تطرحه . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها »

وعن عبد الله بن عمر قال :

« كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته، فمر بقوم ، وامرأة فيهم تخصب تنورها ومعها ابن لها، فاذا ارتفع وهج التنور تنحت به ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : أنت رسول الله ؟ قال نعم . قالت : بأبي أنت وأمي ، أليس الله بأرحم الراحمين ؟ قال : بلى . قالت : أوليس الله أرحم بعباده من الام بولدها ؟ قال : بلى . قالت: فان الام لاتلقى ولدها في النار . فأكب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ثم رفع رأسه لها وقال : ان الله لايعذب من عباده الا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا اله الا الله »

وعن أبي هريرة قال : « أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم بصبي لها فقالت : ادع الله له فلقد دفنت ثلاثة . قال: دفنت ثلاثة ؟ لقد احتظرت بحظار شديد من النار »

ولا أجد ما أتوج به هذا الفصل، أفضل من قوله عليه الصلاة والسلام : « لايقاد والد بولده » فلقد سما بالابوة الى حيث لايجوز أن تتهم بقتل الولد عامدة أو مختارة ، فالاصل في الاب أن يفتدي ولده بالمهجة والروح ، ومحال أن يقتله الا في لحظة يغيب فيها عن وعيه ويفقد رشده ، أو تحت وطأة ظروف فادحة ، تشل ارادته وتخرجه عن أبوته بل عن انسانيته ، وفي الحالين لايكون مسئولا عن أبشع جريمة !

الأنثى فى المجتمع العربى

١ ـ كراهة الاناث
٢ ـ الموءودة
٣ ـ امر من السماء
٤ ـ ونبى انسان !

كراهة الاناث

قلنا ان طبيعة نظام القبيلة ، قد حببت العرب الاقدمين في الانجاب وأغرتهم بالحرص على كثرة الولد • واذا قيل هذا عن البنين ، فالامر ليس كذلك بالنسبة الى الاناث ، بل هو جد مختلف : فما هن بحيث يمنعن الحمى ويحمين الذمار ، ولا فيهن غنية حين يجد الجد وتتأزم الامور • وهن بعد ذلك هدف العدو اذا أغار ، يقصدهن أول مايقصد فيكون السبى الذى يورث القبيلة الذل والقهر ، ويجللها بالعار

ومن أجل ذلك ، كرهوا أن تولد لهم أنثى ، وهى كراهة تتمثل فى صـــور شتى ، أهونها الغيظ المكبوت أو المعلن ، وأقساها الوأد • وقد ســجل القرآن الكريم ذلك المشهد البغيض الذى كان ينتظر الانثى ساعة ولادتها ، بأســلوب يجل عن الوصف ويفوت البيان روعة وعنف اثارة :

« واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ـ يتوارى من القوم من سوء مابشر به : أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » • سورة النحل آية ٥٧ : ٥٩

ووعى ديوان الشعر العربى ، ذلك النشيد الحزين لأم هجرها زوجها حين ولدت له أنثى :

ما لأبى حمزة لا يأتينـــا
غضبان ألا نلد البنينـــا
تالله ما ذلك فى أيدينا !

ومن مأثور قولهم لمن رزىء بأنثى :

« آمنكم الله عارها ، وكفاكم مئونتها ، وصاهرتم القبر»

وما أكثر من رجوا لبناتهم هذا الصهر الرهيب ، ورأوا فيه خير الاصهار ، قال شاعرهم :

لـكل أبى بنت يرجى بقاؤها
ثلاثة أصهار اذا ذكر الصهر :

فبيت يغطيها،وبعل يصونها ،
وقبر يواريها، وخيرهم القبر !

وأنشد آخر :

انى وان سيفى الى المهر : ألف ، وعبدان وذود عشر
أخب أصهارى الى القبر !

وشاعت فيهم القولة المأثورة : «دفن البنات من المكرمات»



الموءودة

وما كنا لنطيل الوقوف عند هـــذه الكراهة التى نراها أثرا محتوما للبيئة ، لولا أنها تمثلت فى مأساة الوأد البشعة، التى ماتزال حتى اليوم تؤرق الضمير الانسانى

ولقد قيل فى تعليل ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم كانوا يئدون الزرقاء والبرشاء والـكسحاء تشاؤما منها ، ويأسا من تزويجها وفيها عاهة

وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفا من الفضيحـــة والعار

ويقال ان أول من فعل ذلك « لقمان بن عاد » من العرب البائدة ، وذلك أنه روع بخيانة نسائه فراح يقتلهن انتقاما واشتفاء ، واذ انحـدر الى الطريق اثر المذبحة ، لقى ابنته فوثب عليها وقتلها متأثرا بما جرب على النســاء من خيانة وسوء

ويذكرون كذلك فى هذا المقام قصة رواها غير واحد من المؤرخـــين وأئمـــة المفسرين كالنيســابورى والزمخشرى والقرطبى ، وخلاصتها أن « النعمان بن المنذر »أغار على تميم حين منعته الاتاوة ، فحاربهـم وسبى نساءهم . ولما ذهب قيس بن عاصم ــ شيخ تميم ــ ليسترد سـبا ياه ، تخلفت بنت له مؤثرة أن تبقى مع النعمان،فعاد«قيس» وقدجن غضبه فوأد كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لاتولد له بنت الا وأدها

واقتدى به رجال من تميم وغيرهم

ووأدوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن لما يعرفون من عجز الانثى وقسوة الحياة عليها ، فآثروا لهن الموت ، على التعرض لعوادى الزمن وأفاعيل الحدثان ، واختاروا مرارة الثكل وفجيعة الحزن ، على احتمال هم الانثى ، والقلق عليها ، ومعاناة الكرب الذي صوره الشاعر فى قوله :

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى
ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ
وكنت أبكى عليها من أذى الكلم
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا
والموت أكرم نزال على الحرم
اذا تذكرت بنتى حين تندبنى
فاضت لعبرة بنتى عبرتى بدم

كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فالآن نمت ، فلا هم يؤرقنى
بعد الهدوء ولا وجد ولا حلم

وقيل كان الوأد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قدمت فيها الاناث قرابين الى الآلهة ، على نحو ماعرف عن مصر قبل الاسلام من تقديم عروس للنيل ضحية وقربانا . ولعل هذا هو مايشير اليه القرآن الكريم فى آيات عدة ، نعى فيها على القوم أن يجعلوا لله البنات ويستأثروا بالبنين:

« ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم مايشتهون » .
« أم له البنات ولكم البنون ؟ » .

« افأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا ؟ انكم لتقولون قولا عظيما »

كما عجب لهم : يحبون البنين هـذا الحب ، ثم يسمون أصنامهم بأسماء اناث ، مستصفين لأنفسهم البنين :

« أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثـة الاخرى ، ألكم الذكر وله الانثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى!» النجم١٩:٢٢

« ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسميـة الانثى ، وما لهم به من علم ان يتبعـون الا الظن وان الظن لايغنى من الحق شيئا » • النجم ٢٧ : ٢٨

ولو كان الامر فى مثل هذا يخضع للعقل والمنطق لأبوا أن يتعبدوا لأصنام تحمل أسماء اناث،لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة والانانية العشواء لاتدع لصاحبها عقلا•وما دام الناس منذكر وأنثى ، فليتقاسموهما مع الله:لهمالبنون ولله الاناث :

« فاستفتهم : ألربك البنـات ولهم البنـون ؟ أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون ؟ ألا انهم من افكهم ليقولون : ولد الله ، وانهم لكاذبون ـ آصـطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون ؟ »

ووأدوا خشية فقر واملاق ، والرواة يذكرون فى ذلك مئات ممن استنقذهن « صعصعة بن ناجية » من الوأد لهذا السبب وحده • وأخريات فداهن « عمرو بن زيد بن نفيل القرشى »

فأما صعصعة ، فيقال ان أول ما كان من نهوضه بتلك المكرمة ، أنه مر برجل من تميم يحفر حفرة ، وغير بعيـد منه امرأة تبكى متشبثة بوليدة لها • فلما سألها صعصعة

عما بها ، أشارت الى الرجل وقالت : هـــذا زوجى يريد أن يئد ابنتى • وانثنى صعصعة الى الرجل يسأله : ماحملك على هذا ؟

أجاب : الفقر

فافتداها منه بناقتين يتبعهما أولادهما ، وعاش السيد الكريم لايسمع بموءودة عن فقر الا سعى فى فدائها ، فلما مات ترك لبنيه مجدا خالدا ، باهى به حفيدهالفرزدق قائلا:

وجدى الذى منع الوائدات
وأحيـــا الوئيد فلم يوأد

أجار بنات الوائدينومنيجر
على الفقر يعلم أنه غير مخفر

وكذلك حدثوا أن«زيد بن عمرو بن نفيل» ، كاناذا سمع بفقير يهمبوأدابنته ، مضىاليه فقال : «لاتقتلها ، أنا أكفيك مئونتها » • فاذا كبرت عاد بها الى أبيها فراجعه فى أمرها، وخيره بين استردادها أو بقائهـا حيث هى فى كنف الذى استحياها

قال ابن اسحاق فى السيرة :

« حدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن الخطاب ــ وهو ابنعمه ــ قالا لرسول الله : أنستغفر لزيد ؟ قال : نعم ، فانه يبعث أمة وحده »

أمر من السماء

والوأد عن فقر ، هو الذى آثره القرآن الكريم بالذكر الصريح ، فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » . الاسراء ٣١ ، وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » . الانعام ١٥١

والقرآن فى هذا ، يمضى بالوأد الى سببه الاهم والأبعد، ويتجه به الى التفسير الاقتصادى الذى هو أحدث نظرية فى فهم التاريخ ، سواء فى ذلك التاريخ السياسى ، والاجتماعى ، والفنى

فمهما تتعدد الاسباب التى قيلت فى تعليل الوأد ، فمن اليسير ردها جميعا الى العامل الاقتصادى ، وتفسيرها واحدا بعد الآخر ، بالبيئة المادية : فوأدهم ذوات العاهات يفسر بخوفهم عليهن من البوار ، فيكن عالة على الآباء

والوأد تأثرا بعبادة قديمة ، يعلل اقتصاديا اذا ذكرنا أنهم خصوا الاناث به ولم يجودوا بالبنين الا فى حالات نادرة ، لانكاد نعرف منها فى العصور المتأخرة الا ماكان من نذر «عبد المطلب » ليذبحن أحد بنيه لله فى الكعبة ، اذا كملوا عشرة وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، فهو كما تقول الرواية ، لم يرض أن يجود بأحد أبنائه ، الا بعد أن اشترط عددا معينا من البنين ، وأن يبلغوا بحيث يمنعونه ، ومع ذلك لم تكد

الشفرة تدنو من عنق الولد ، حتى قامت قائمة قريش وهبوا صائحين :

« والله لاتذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ »

ومن ثم اتجهت القصة اتجاها آخر ، وانتهت بافتداء «عبد الله » من الذبح بمائة من الابل ، نحرت هنالك عند الكعبة ، وتركت لايصد عنها انسان ولا سبع !

ولو أن الذبيح كان فتاة ، لما اهتزت قريش ، ولا عناها الامر في كثير أو قليل ، وانما ريعت لأن ذبح ولد — ولو كان الذبح زلفى الى الله ووفاء بنذر مقدس — يهدد القبيلة بخطر الفناء ، أو كما قالت لعبد المطلب : « فما بقاء الناس على هذا ؟! »

والوأد خوف العار ، يمكن كذلك أن يرد الى سبب اقتصادى ، فالاغنياء يكرهون الاناث خوفا من تفتت ثرواتهم ، وهو بعينه السبب الذى جعل الواحد منهم يخلف على نساء أبيه أو أخيه ، احتفاظا بالمال ، أو تركيزا للعزة ، ودرءا لأسباب التصدع

وما وأدهم البنات خوفا من العار ، الا حماية لثرواتهم ومراكزهم وجاههم ، من مذلة السبى أو الزواج من غير كفء . ويبين هذا بوضوح ، في حديث «قيس بن عاصم» حين وفد على الرسول واعترف بأنه ماولدت له بنت الا وأدها ، فسأله أحد المهاجرين : فما الذى حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكحهن مثلك ! قالوا : فتبسم

رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر

هو العامل الاقتصادى اذن ، يرد اليـه كل ماقيـل عن أسباب الوأد فلا يتخلف سبب منها ، وعلى هذا مضى القرآن المعجز ، فخص هـذا العامل بالذكر ، وفسر الوأد تفسـيرا اقتصاديا ، راجعا به كما قلت الى السبب الاول والابعد ..

ويصف لنا الزمخشرى فى «الكشاف ١٨٨/٤ » كيف كان يتم الوأد : يخرج الرجل بوليدته وقد حفر لها بئرافى الصحراء ، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر • وقيل كانت الحامل اذا أوشكت على الوضع حفرت حفرة ونقلت قريبا منها عندما يجيئها المخاض ، فاذا ولدت بنتا رموا بها فى الحفرة ، وان ولدت ذكرا أمسكوه وعادوا به»

□

تلك صورة بشعة غبراء لوضـع الانثى فى الجاهليـة ، وليس بالغريب أن توارى بشاعتها أوضـاعا أخرى كريمة لبنات العرب كن فيها اذ ذاك موضع الاعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تطغى تلك الاخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحـدث عما كان من ايثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والارواح ،وأن يظل الصدى الحزين الذى يرجع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن الثكالى ، يصدع سمع الانسانية ، بحيث تتوه فيه أصداء أخرى من مثل قول « معن بن أوس » وقد رزق ثلاث بنات :

رأيت رجـالا يكرهـون بناتهـم

وفيهن ـ لاتكذب ـ نساء صوالح

وفيهـن والايام يعثرن بالفتى
عـواثد لايمللنه ، ونوائـح

بل كدنا ننسى ـ في غمرة الاسى لمأساة الوأد ـ أن من الآباء من كنوا بأسماء بناتهم ، كأبى أمامة النابغةالذبيانى، وأبى الخنساء قيس بن مسعـود الشيبانى ، وأبى سـلمى ربيعة ابن رباح (والد زهير) ، وأبى عفراء حنظلة الطائى ، وأبى سـفانة حاتم طيىء ، وأبى عـزة عمرو بن عبد الله الجمحى

وغاب عنـا كذلك ـ أو كاد ـ أن من سـادة العرب من كرموا بمدح بناتهم ، وأن من هؤلاء البنات من استجير بها فأجارت ، كبنت عوف الشيبانى ، وفكيهة بنت قتاد التى أجارت « السليك بنالسلكة » فأثنى عليها فى شعره الثناء المستطاب

▭

ويزيد في فداحة المأساة وسوء أثرها وعنف صـداها ، أن قيل ان الوأد كان عاما فى القبائل كلهـا ، على ما نقـل « الميدانى » فى كتابه « مجمع الأمثال : ١ ـ ٣٨٩ » والنويرى فى كتابه « بلوغ الارب ٣/٤٢ » ، وان أكد رواة آخرون ، ان الوأد لم يكن فى غـير تميم وقيس وأسد وهـذيل وبكر ابن وائل ، وانها جميعا تخلصت منه قبلالاسلام ، الا تميم ، فقد جاء الاسلام وفيها الوأد لا يزال

ومن المحزن حقا ، أننا اذا استطعنا أن نجزم بأن الوأد لم يكن شائعا ولاواسع النطاق ـ وهذا لايهونمنبشاعته ـ فلسنا بحيث نملك أن ننفيه عن أسلافنا العرب ، ولا نحن بقادرين على الارتياب فى أمره وقد تواترت به الأنباء وسجله عليهم كتابنا الكريم

كل الذى نملكه هو ان ننفى عموم الوأد ، ونأبى القول بأنه كان فى نطاق واسع ، والا كان ضربا من الانتحار الجماعى، والاستسلام المخبول للفناء والانقراض

على اننا لا نكتفى بهذا فى نفى عموم الوأد ، بل نضيف اليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية الوأد على نطاق واسع

كان هناك الميراث القديم من عهد « الأمومة » تخلفت بقاياه كما قلنا فى انتماء القبائل والأفراد الى امهاتهم ، وفى تسمية العشيرة باسم « البطن » وفى تسمية الاصنام والملائكة والآلهة بأسماء اناث ، وهذه البقايا المتخلفة كانت تضفى على الأنثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الابادة ، وان ظهرت أحيانا بمظهر مناقض ، هو وأد الفتاة تأثرا — فى رأى بعض علماء الاجتماع — بالطقوس الدينية القديمة

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من حرص على البقاء ، تحمى بقوتها التى لا تدانيها قوة غريزة اخرى ، بنات العرب من الوأد قدر المستطاع

وكانت هناك أنوثة فى حياة كل رجل : اما ، أو زوجة ، او حبيبة او اختا ، تلطف من النظرة البغيضة الى البنت ، وتفسح أمامها مجال الحياة

ثم كان هناك الى جانب هذا كله ، بل قبل هذا كله ، العامل الاقتصادى الذى يجعل البنت حين تكبر ، وعاء للولد وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب فى نظرتهم الجانبية الى البنت قد اعتبروها كلا عليهم وعالة ، فلم ينتبهوا الى الجانب الآخر ، وهى انه لا سبيل الى ولد لا تحمله انثى جنينا وتغذوه رضيعا وتحضنه صبيا وتربيه غلاما وترعاه

وجلا ، الا أن الحياة كانت تسير بمقتضى أوضاعها الطبيعية ، مقدرة ضرورة وجود البنت لبقاء البشرية وعمار الكون ، غير معنية بما اذا كان القوم منتبهين الي هــــذا أو غير منتبهين .

ومن هنا رجحنا فى اطمئنان ، أن الواد لم يكن عاما ولا واسع النطاق ، وهذا ان لم يهون من بشاعة المأساة ، فلا أقل من أن يلفت الى الجانب الآخر من حياة الأنثى فى المجتمع العربى بالجاهلية حيث عاشت الناجيات من الواد ، ملء عيون القوم وقلوبهم • ومن شــاء فليرجع الى الفصل الذى كتبته عن « الأنوثة والأمومة » فى كتابى « آمنة بنت وهب » ليقرأ بعض ما نقلت من أخبار تكريم الاناث وتقــديرهن واعزازهن والاعتراف بمآثرهن .

ولا غرابة فى أن تجمع البيئة الواحدة فى الزمن الواحد بين النقيضين ، فتئد البنت كراهة لها أو لفرط حبها اياها وخوفها عليها ، وتزهــد فى ولادة البنت ، فى الوقت الذى تفتدى فيه نساء القبيلة بالدماء ، وتضيق ببنت تولد ، مع انها تسمو بها « أما » الى حيث لا مزيد من التكريم والاكبار • لا غرابة في هــــذا ، فالحيــاة ما تزال تجمع بين المتناقضات دون ان يختل نظام الكون او يضـــطرب سير الفلك . والامر فى واد الأنثى أو اعزازها ، مرده الى العادة والعرف ، والى التقليـــد الاجتماعى الذى لايعتمـــــد على شيء من التفكير ، وانما يتم بتوجيه الراى الجماعى دون أن يكون للفرد مستقلا مجال للتفكير فيه ، ولذلك نرى فى الجماعة عرفين متناقضين فى الوقت الواحد كالذى شهدنا فى البيئة العربية القديمة من تسمية الاصنام بأسماء اناث ، وهــذا

مظهر تقديس وتكريم ، ومن واد البنات زهدا فيهن وضيقا بهن ، وكالذى نشهده اليوم فى البيئة الرجعيــة المحافظة ، تعلم الفتاة وتأذن لها فى الخــروج والاحتراف ، ثم تأبى فى الوقت نفسه على خاطبها ان يراها . وشبيه به ما نشهده فى المجتمع الشرقى ، يحرم على الفتاة المسلمة باسم المحافظة والدين دخول المعاهد الدينية ، ويأذن لهــا فى الالتحــاق بمعاهد الرقص والتمثيل . ويحــدث احيــانا أن تطــالب الجامعيات من المتخرجات فى كليــة الحقوق ، بمنــاصب القضاء فتثور ثائرة المحافظين وتأبى السلطات ان تستجيب، متحرجة باسم الاسلام ، من ولاية الأنثى المسلمة ، مع أنهم فى الوقت نفسه لا يحركون ساكنا اذ يرون من بنات المسامين من تحترف الرقص أو تشتغل فى الملاهى الليلية أو تشرب الخمر علنا فى الحانات !

وانما يحدث هذا التناقض ومثله ، لانها كما ذكرت مسائل تقليدية وليست منطقية ، ينفعل الفرد فيها بشعور الجماعة، ويتأثر بعقليـــة القطيع ، فيسيغ ما يأباه عقله ، ويتحمس لتأييد ما كان زعيما بمعارضته لو نجا من احتــكام العادة وسلطان التقليد واستهواء الراى العام

□

ونعود الى ما كنا فيه من حديث عن مركز الانثى فى المجتمع العربى ، فلا نملك بعد طول البحث والتنقيب عن الاخبــار المروية فى اعزاز الانثى وتكريمها ، والتماس الادلة والشواهد المؤكدة بأن مأساة الواد لم تكن عملية ابادة بالجملة ، اقول : لا نملك بعد هذا كله الا ان نعترف بأن منزلة البنات كانت دون منزلة البنين

وكذلك غبر العرب زمانا ومنهم من يدس وليـــدته فى التراب ، ومنهم من يمسكها على مضض وهون ، زمن ثم يبيت ساهرا عليها معنى بها ، حتى يدفعها الى زوج كفء ، أو يسلمها الى القبر خير الاصهار

وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التى جاوزت فى بشاعتها اقسى المدى ، واول ما نزل من آياته تعالى فى الواد ، قوله عز وجل منذرا بيوم الهول الاكبر :

« واذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » التكوير ٨،٩

ثم حكم بالخسران والضلال على السفهاء المفترين الذين قتلوا اولادهم :

« قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، وقد ضلوا وما كانوا مهتدين » الانعام ١٤

ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى فى سورة الاسراء وهى مكية :

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا . . . ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا »

وقوله فى آية ١٥١ من سورة الانعام ، وهى آية نزلت بالمدينة :

« قل تعـــالوا أتل ما حـــرم ربكم عليـــكم : الا تشركـــوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »

والمفسرون ، على ان قتل الاولاد فى الآيتين ، يعنى واد البنات . « الكشاف ٢ ــ ٣٥٩ »

□

على ان تحريم الواد لم يكن ليمنع من الضيق بالبنات او يحول دون الزهد فيهن ، وقد جرت البشرية على ذلك من قديم العصور والآباد : فمن اعماق الدهر الاول ، بقى صوت نوح عليه السلام ، اذ يعد نعم الله على قومه فيؤثر البنين بالذكر قائلا :

« يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم باموال **وبنين** ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا »

ولم تنج من محنة الزهـــد فى ولادة الانثى ، **« مريم »** **العذراء** المصطفاة على نساء العالمين :

« اذ قالت امراة عمران : رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك انت السميع العليم . فلما وضعتها انثى قالت : رب انى وضعتها انثى ــ والله اعلم بما وضعت ــ وليس الذكر كالانثى ، وانى سميتها مريم »

هى اذن نزعة قديمة فى البشر ، وعادة تأصلت على مر الزمن حتى صارت طبيعة فينا يعز التخلص منها ولو بعد زوال الاسباب الاولى التى دعت اليها ، والعوامل القديمة التى قضت بها فى اول الامر . فخروج المراة الجديدة الى ميدان العمل ، وقدرتها على الكسب المادى ، واتاحة الفرص امامها لتظفر باعلى المناصب وترقى فى « كادر الموظفين » الى اقصى الدرجات ، كل هذا ومثله معه ، لم يضع المولودة الانثى والوليد الذكر بمنزلة سواء ، ولا اعفاها ساعة ولادتها

من الاستقبال البغيض الذى تصوره الاغنية الحزينة الذائعة على لسان الام :

لما قالوا دا غلام ... انشد حيلى وقام
وجابوا لى البيض مقشر ... وعليه السمن عام
ولما قالوا دى بنيه ... انهد ركن البيت عليه
وجابوا لى البيض بقشره ... وعليه السمن ميه

قد يقال هنا ان تغير الوضع الاقتصادى لا يمنع كراهة الانثى خوف عار قد يلحق بأهلها من سلوكها ، او خشية تفتت مال الاسرة عن طريق الميراث ، فنرد على هذا بأن البنات مكروهات حتى فى البيئات المتحللة التى لا تكترث بالسلوك ، وفى الاسر الفقيرة التى لا جاه لها ولا مال ، وما ذاك الا لان كراهتهن ميراث قد انحدر الينا من قديم الحقب ، وعادة نشأت فى الاصل بحكم البيئة واثر العوامل المادية ، ثم اخذت مجراها فى مشاعرنا على طول الزمن ، فلم يعد من السهل التخلص منها ، حتى مع تغير البيئة ، وزوال العوامل المادية

والقرآن الكريم فى خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره الحكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات ، لم يرج من القوم أن يقهروا فى مشاعرهم نوازع الوراثة العاطفية وسلطان الطباع التى صنعتها البيئة المادية وحفرت مجراها فى نفوسهم على تتابع العصور وتعاقب الاجيال ، لكنه كذلك ، فى تساميه بالانسانية ، لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضابالبنات وحمايتهن من اثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة حاثة على اتقاء الله فيهن ، حاضة على انصافهن ومساواتهن بالبنين قدر ما تحتمل الطبائع والاوضاع

النبى الانسان

وما احسبنى فى حاجة هنا الى عد الحقوق الانسانية والشرعية والمادية التى حماها الاسلام للمراة ، او بيان المنزلة الكريمة التى وضعها فيها ، فقد كثر القول فى هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المراة ، وكانت الشريعة الغراء هى النبع الاول الذى استمدمنه دعاة التحرير ادلتهم واسانيدهم لدفع ما حاق بالمراة الشرقية فى العصور المتاخرة من ظلم ، وتحطيم الاغلال التي كبلتها باسم الدين والدين منها براء ، لكن يطيب لى مع ما اعرف ويعرف القراء من هذا كله ، ان اروى بعض ما قرات من وصايا الرسول الكريم بالاناث ، واعرض هنا من حديثه معهن ، ما اراه تمهيدا طبيعيا للحديث عن ابوته لبنات اربع .

نقل « البخارى » فى صحيحه ، ان السيدة عائشة قالت : « جاءتنى امراة معها ابنتان تسالنى ، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة ، اخذتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته بأمرها فقال : من بلى من هذه البنات بشىء فأحسن اليهن ، كن له سترا من النار »

وفى صحيح « مسلم » عن انس بن مالك انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى

تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو (وضم أصابعه) »

وفى سنن ابن داود عن ابن عباس قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له انثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها ـ يعنى الذكور ـ اذخلهالله الجنة»

وروى البخـاري كذلك حديث الصحـابى الذى جاء يستأذن الرسول فى ان يوصى بماله للمسلمين ، اذ كان لم يرزق بولد ذكر ، ولم تكن احكام المواريث قد نزل بهـا القرآن بعد ، فسأله الرسول : هل له بنات ؟ فلما اجاب بنعم ، ابى عليه الرسول ان يوصى بماله وله بنات

وكذلك فعل الرسول مع امرأة من الانصار جاءته بابنتين لها فقالت : « يا رسول الله ، هاتان ابنتا ثابت بن قيس ، قتل معك يوم احد ، وقد استفاد عمهما مالهما وميراثهما كله فلم يدع لهما مالا الا اخذه ، فما ترى يا رسول الله، فوالله لا تنكحان ابدا الا ولهما مال » فقال الرسول متأثرا : «يقضى الله فى امرك » وامهلها الى الغداة ، فنزلت آية المواريث ، فقال صلى الله عليه وسلم : ادعوا لى المراة وصاحبها . فلما جاءا قال لعم البنتين : « اعطهما الثلثين ، واعط امهما الثمن ، وما بقى فهولك » سنن ابن ماجه ١٨/٤٨

□

وما رؤى اكرم منه قط فى معاملة الاناث والترفق بهن والانتصاف لهن ، ولقد يكفينى هنا ، ان اشير الى موقف نبيل ، لا اعرف ادل منه على مدى ما كانت الانثى تطمح اليه من عزة وكرامة فى كنف الرسول : عن عائشة رضى الله عنها ان فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الانفعال والغضب :

ان ابى زوجني ابن اخيه ليرفع بى خسيسته وانا كارهة .
فدعتها السيدة الكريمة لتجلس حتى يأتى النبى صلى الله عليه وسلم

وجاء النبى ، وسمع شكوى الابنة ، فارسل الى ابيها حتى اذا حضر ، جعل امر الفتاة اليها . فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة :

« قد اجزت ما صنع ابى ، ولكن اردت ان اعلم : اللنساء من الامر شيء ؟ »

ولقد اجارت زينب بنت الرسول ابا العاص بن الربيع عندما اسر بالمدينة قبل ان يسلم . واستأمنت « ام حكيم بنت الحارث بن هشام » ـ عام الفتح ـ لعكرمة بن ابى جهل ، فأمنه الرسول ، مع انه كان قد ذكر اسمه بين الذين امر بقتلهم ولو وجدوا تحت استار الكعبة . وفى صبيحة يوم الفتح ، لاذ رجلان من بنى مخزوم ببيت ام هانيء بنت ابى طالب ، فدخل اخوها « على » فى اثرهما فقال : والله لاقتلنهما . فاغلقت عليهما باب بيتها ثم سعت الى الرسول وهو باعلى مكة ، فاخبرته خبر الرجلين من بنى مخزوم ، واصرار اخيها « على » على قتلهما ، فقال الرسول :

« قد اجرنا من اجرت يا ام هانى ، وامنا من امنت ، فلا يقتلهما » . السيرة ٤/٦٠

ثم كانت معاملة النبى للاناث ، على قرب العهدبالجاهلية ، فوق الذى طمعن فيه او رنون اليه من عزة وكرامةومروءة

وما من ريب فى ان البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة فى شخص الرسول الكريم لتقاوم

ما الفته فى معاملة الاناث . ويكفى لنقدر تلك الحاجة ، ان نسترجع هنا حديث عمر بن الخطاب :

« والله ان كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء امرا حتى انزل الله تعالى فيهن ما انزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا انا فى أمر ائتمره اذ قالت لى امراتى : او صنعت كذا وكذا ؟ فقلت لها : ومالك انت ولما هاهنا ؟ وما تكلفك فى امر اريده ؟ فقالت لى : عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد ان تراجع انت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

« فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة فقلت لها :

ـ يابنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟

فأجابت :

ـ انا والله لنراجعه !

« ثم خرجت حتى دخلت على « ام سلمة » لقرابتى منها، فكلمتها ، فقالت لى :

ـ عجبا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى ان تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وازواجه؟

« فأخذتنى اخذا كسرتنى به عن بعض ما كنت اجد »

وهذا الخبر وحده ، يغنينى عن مزيد من البيان لمدى الحاجة القصوى فى بيئة الرسول ، لمثل اعلى يروضها على تغيير موقفها من الاناث ، فهذا عمر ، صهر النبى وصاحبه الذى اعز الله به الاسلام ، قد تلا ما نزل من آيات الله فى النساء ، وكان من افقه المسلمين بالدين القيم ، ومع ذلك

كره ان تشترك معه زوجته فى أمر له ، وانكر منها ان تشير عليه برای ، فلما تمثلت بابنته حفصة ، استفظع واستنكر ، وانطلق اليها مغضبا يسألها فيما سمع وانه ليطمع فى ان تجيب بلا ، الكنها اكدت له انها ، ونساء النبى ، يراجعنه ، فانصرف عمر عنها مغضبا لا يكاد يصدق اذنيه ، الى ان ردته « ام سلمة » بكلمتها التى تفيض عزة واباء :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى ان تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وازواجه؟ »

وتلقى « عمر » الدرس البليغ من بيت الرسول ، وكذلك تلقاه الصحابة والمسلمون ، فلا عجب ان رأينا « ابا دجانة » الفارس ، يأخذ سيف الرسول فى معركة احد ، وينطلق به مختالا وقد عصب راسه بعصابة له كانت تسمى عصابة الموت ، فما يلقى احدا من المشركين الا صرعه ، حتى يبلغ « هندا بنت عتبة » تزار فى قومها محرضة على الفتك بالمسلمين ، فيضع الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث ان ينأى به عنها وهو يقول : « اكرمت سيف رسول الله ان اضرب به امراة »

هذا هو « محمد بن عبد الله » فى انسانيته الرفيعة وبشريته المثالية ، وابوته الرحيمة التى تفيض بأرق المشاعر وانبل العواطف ، واحسب ان قد آن الاوان لنتحدث عنه صلى الله عليه وسلم ابا لبنات اربع ، رزقهن جميعا قبل ان يبعث رسولا ، وعشن حتى شاهدنه فى نضاله الأقداس ومعركته الظافرة الخالدة

الأخوات الأربع

١ ــ البيت والابوان
٢ ــ ابو البنات
٣ ــ الشقيقان
٤ ــ حب النبى لبناته
٥ــ الشقيقات الأربع فى بيتهن الاول

البيت والابوان

فى جوار الحرم الاقدس ، حيث دور قريش حافة بالمسجد الحرام مستاثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الاسنى ، قامت الدار التاريخية التى كتب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمى ، وأن تستقبله بعدخمسة عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ، بعد أن تلقى رسالة السماء

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فينزل اليها بعدد من الدرجات ، توصل الى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو قدم ، وطولها عشرةامتار، اما عرضها فاربعة

وعلى اليمين باب صغير ، يصعد اليه بدرجتين ، يؤدى الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة ابواب : يفتح أولها — من الجانب الايسر — على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة امتار ، كانت للنبى المختار محرابا ومعبدا ، ويؤدى الباب الامامى الى بهو متسع طوله ستة امتار وعرضه اربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، أما الباب الثالث فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح فى غرفة مستطيلة ، طولها سبعة امتار وعرضها اربعة ، وقدجعلت لبنات محمد . وعلى طول هذا المسكن من ناحية الشمال

فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا فى سبعة امتار ، ويرتفع عن الارض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة « خديجة » تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه الساحةمضيفةلاستقبال الضيوف

هذه هى الدار التى استقبلت محمدا ـ اولمااستقبلته ـ يوم اختارته السيدة خديجة ليخرج فى مالها الى الشام متاجرا ، ثم استقبلته عائدا من رحلته ، حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش ، واخذها منه بهاء طلعته وجلال شخصيته ، حتى اذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل ـ ١٥ قبل المبعث ـ دقت الطبول فى الدار ، احتفالا بزواج زين شباب قريش عفة وامانة وخلقا ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى ، سيدة نساء قريش واعظمهن شرفا واكثرهن مالا

وقضت مكة اياما وليالى ، ولا حديث لها الا عن ذلك الزواج المشهود . ولم تكن بهجة الحفل وحدها هى التى استأثرت بحديث القوم ، وانما اذهلتهم المفاجأةغيرالمنتظرة، فما داربخلد أحدهم أنترغب «السيدة خديجة » فى الزواج من جديد بعد الذى عرف من زهدها فى الرجال وانصرافها عنهم وردها سادة قريش واحدا بعد الآخر ردا موئسا ، ولا خطر ببالهم ان يكون « محمد » ـ ابن الخامسة والعشرين ـ هو الزوج المختار للارملة الثرية ، ذات الاعوام الاربعين

واذا كان رجال من قريش قد نقموا يومئذ على العقيلة الغنية ، أن تؤثر عليهم شابا غير ذى مال ، فلعل بنات

هاشم قد تحدثن طويلا عن شبابه الغض ، تستأثر به سيدة تزوجت من قبل مرتين ، وتصرفه عن العذارى الهاشميات، ذوات الصبا الندى والحسن النضير

على أن احدا من هؤلاء أو أولئك لم يزعم ـ صادقا ـ ان خديجة فى عزتها وشرفها وثرائها ، غير كفء لمحمد ، أو أن محمدا فى عراقة نسبه وطيب عنصره وجلال شخصيته، غير كفء لخديجة ، وانما اقصى ما قيل عنهما ، انها كهلة فى الاربعين ، وانه شاب فقير فى الخامسة والعشرين

▭

وحين ذهب اثر المفاجاة ولم يعد يجدى حديث عن فارق السن والثروة بينهما ، كفت اندية قريش ومسامر مكة عن ذلك الحديث العقيم ، وبدات تستعيد ذكريات ماضية أثارتها المناسبة ، وتنفض عنها غبار السنين

وربما كان أول ماتذاكره القوم يومئذ ، قصة ابنـــة عم لخديجـــة ، ثرية ناضجة ، اختارت هى الاخرى فتى هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين عاما ، وان كان لم يستجب لها

تلك هى « رقية بنت نوفل » الاسدية ، أخت ورقة : لمحت عبد الله بن عبد المطلب اثر انصرافه من الكعبة بعد أن افتدى من الذبح وفاء لنذر أبيه ، فشامت عليه مخايل مجد مرجو ، وعرضت عليه نفسها ، وله مثل الابل المئة التى نحرت عنه ، فاعتذر فى تلطف ، ومضى فتزوج آمنة بنت وهب ، فتاة آل زهرة

وهذه هى خديجة بنت عم رقية ، تتقدم بكل جاهها

وثرائها وعزتها ، الى ابن عبد الله ، تعرض عليه ان يتزوجها .
وعاش « ورقة بن نوفل » ليسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه ، ويشهد حفل عرسهما ، بعد ان شهد بالامس البعيد انصراف عبد الله ابى محمد ، عن اخته رقية بنت نوفل

وحين كانت مسامر مكة فى شغل بالحديث عن الزوجين السعيدين ، كان « ورقة » يستعيد ما ذكرته له «خديجة» من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد فى مالها الى الشام ، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما ، من كلام أخته رقية عن النور الذى رآته فى وجه عبد الله ، فيكاد «ورقة» يلمح فى صهره الشاب ، ملامح النبى المنتظر الذى شاع ان زمانه قد اظل ، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا
لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من « خديجة » بعد وصف
فقد طال انتظارى يا خديجا !

□

وبدات حياة زوجية هانئة يظللها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة ، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر ، ثم لم يكد يمضى على زواجهما عام وبعض عام ، حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة ، فخفق قلب « محمد » فرحا وغبطة ، اذ يوشك للمرة الاولى ان يغدو ابا ! وأثارت الابوة المرتقبة

اعمق مشاعره ، وارق انفعالاته ، وهو مقبل على التجربة العظمى التى لا يكمل وجود الرجل بغيرها ، فعمـا قريب يشهد فلذة منه تخرج الى النور وتستقبل الحياة ، لتكون امتدادا لحياته ، وعما قريب يرى صورته ممثلة فى كيان صغير لطيف ، تتم به هذه السعادة التى عرفها منذ عرف خديجة

وذكر امه التى رحلت عن الدنيا وهو صبى فى السادسة ، وذكر أباه الذى ثوى فى « يثرب » وولده ما يزال جنينا فى رحم امه آمنة بنت وهب ، فتمنى لو انهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملأا أعينهما من مولوده المنتظر

ولم ينس جده الشيخ عبد المطلب الذى كان له من بعد أبيه ابا ، فرق قلبه وهو يستعرض ذكرياته ، وتندت عيناه شجوا ورحمة ، ثم آب من تأملاته وراح يرقب زوجتـه الحبيبة وهى تروح وتغدو فى الدار بخطوات أثقلها الحمل الغالى ، ووجهها المشرق يتألق بسنا السعادة والحنان

لم تكن هذه تجربتها الاولى فى الامومة ، فقد ولدت البنين والبنات من زوجيها السابقين : عتيق بن عائذ المخزومى ، وابى هالة التميمى ، فهل تراها كفت عن التشوق للأبناء ووجدت فى بنيها : هند ، وهالة ، وعبد مناف ، ما يرضى امومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء ؟

معاذ الحب ان تقنع امومة خديجة بابنائها الاولين ، فلا يشوقها ان يكون لها ولد من زوجها الحبيب : محمد بن عبد الله !

ومعاذ الفطرة السوية للأنوثة الناضجة المجربة ، أن تزهد

خديجة فى الابناء ، فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها،ويثبت انها ما تزال فتية منجبة !

وكيف يظن بها الزهد فى الولد ، وهى ترى زوجها العزيز فى ذروة فتوته ونضرة شبابه وقد بدات هى العقدالخامس من عمرها ، فى بيئة تتزوج بناتها دون العاشرة ، وتكتهل نساؤها دون الاربعين ؟

كلا ! فما كانت امراة فى قريش اشد لهفة على الحمل ، من هذه السيدة التى جربت الامومة من قبل وكان لها بنون وبنات . وما كانت هى نفسها ، فى زواجها الاول او الثانى، باشوق منها الى الولد فى زواجها هذا الثالث والاخير ، اذ كانت فى المرتين الأوليين ، ابعد من أن تتهم بالجفاف أو يظن بها اليأس،أما فى هذه المرة فالامل فى الانجاب أبعد،والاتهام باليأس قريب

وما ارتاب فى ان المخاوف ساورتها فى مطلع حياتهـــا الزوجية الجديدة ، واشفقت أيما اشفاق من ان تمسك رحمها فلا تجود بعقب لهذا الحبيب الذى لم يتزوج سواها من قبل ، ولا عرف مثلها الولد

ولم يرعها ان تتمثل عجائز قريش وهن يتربصن بها الايام ليملأن اشداقهن بالحديث عن كهولتها المجدبة وحيويتهـا الناضبة ، ولا أهمها ان تتصور سيدات بنى هاشم وهن يتأسفن على زين شباب الاسرة فى حرمانه من الذرية ، بقدر ما اهمها وراعها ان تكون هى السبب فى هذا الحرمان، وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجها بعيدا عنها فى بعض شئون العمل أو التجارة ، فيذود النوم عن عينيها ويؤرق لياليها ، ولا تجد ما يسرى عنها الا أن تلوذ

بالسماء ضارعة الى الله ان يتم عليها نعمته ، ويهبها ولدا من أحب الازواج . وما تزال كذلك حتى يثوب اليها زوجها العزيز ، فتشعر بالحيوية تسرى اليها منه ، وتحس بنفحة عطرة من شبابه تنسيها هواجسها التى شغلت بالها ، وترد اليهـا ثقتها فى نفسها ، واطمئنانهـا الى جيويتها المذخورة الخصبة .

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح أعطافها فأقبلت على زوجها مشنوقة هائمة تزف اليه البشرى ، ثم بعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد فى دور بنى هاشم وينشرونه فى احياء قريش ، واغدقت عطاءها على ذوى الحاجة، وكأنما ارادت أن تشاركها « مكة » كلها فى فرحتها ، فلا يبقى من اهلها جائع ولا محروم



أبو البنات

واستمرات متاعب الحمل واستخفت ثقله ، فظلتطوال أشهره التسعة ، تعد دنياها لاستقبال الوليد ، وتختار له المرضع قبل ان يولد (الاصابة ٨/٦١)

حتى اذا آن أوان الوضع ، واجهت التجـــربة ــ التى تعرف شدتها وقسوة آلامها ــ فى شجاعة فذة واحتمال نادر ، على حين وقف الزوج فى محرابه ، ينتظر اللحظـة الحاسمة بلهفة مشوبة بشىء من القلق ، لم يلبث ان تبدد حين انبعثت من مخدع الوالدة ، صيحة رقيقة واهنة ، معلنة قدوم الوليد السعيد

وتبعتها صيحات ابتهاج عالية ، سرت مع الهــواء الى الحرم ، وبلغت أسماع الحى القرشى ، فعرف القوم ان خديجة بنت خويلد ، وضعت مولودها الاول ، لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب

ومضت فترة من الوقت والاب الكريم يرنو الى مخدع زوجته مستثار الشوق الي رؤية الفلذة الحية من صلبه ، ثم فتح باب المخدع على القابلة (سلمى : مولاة صفية بنت عبد المطلب » تحمل الى الاب طفلته الاولى ، فتلقاها بين ذراعيه فرحا ، ودنا بها من زوجته الراقـــدة فى فراش الوضع ، مسترخية الاعضاء من فرط الإجهـــاد ، بادية الغبطة والهناءة مع ذاك

وتلاقت أعينهما على وجه الوليدة الحلوة ، وخفق لها قلباهما وهما يريان فيها صورتهما معا

وسماها أبوها « زينب »

ونحرت الذبائح احتفالا بمولدها !

□

ترى هل مر ببالهما فى تلك اللحظة خاطر مشترك ، هو ان الله رزقهما بانثى ، وليس الذكر كالانثى ؟

وهل ود كلاهما لو ان الوليدة كانت ولدا ؟

ربما ، فما من شىء كهذا بمستغرب من زوجين مثلهما ، فى فطرتهما السوية ، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه بيئتهما من حب البنين . لكن ذلك الخاطر لم يكن بالذى يعكر عليهما صفو الفرحة بسلامة الوضع ، فقد عظمت حرارة ترحيبهما بمولد طفلتهما الاولى .. وتشبثت الأم بوليدتها أياما قبل ان تدفع بها الى المرضع المختارة ، على المألوف من عادة أشراف مكة

وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعتها ، حتى عادت اشبه بزهرة غضة باسمة ، اضفت على البيت مزيدا من السنا ، وعطرته بأريجها الزكى

□

ولم يطل بها المقام فى البيت ، حتى استقبل اختها «رقية» فاتصل بها الامل فى نماء الاسرة ، واعتدها الابوان الكريمان بشرى خير وبركة

ثم جاءت من بعدهما « أم كلثوم » وكان الظن ان يضيق الأبوان بمولد أنثى ثالثة ، فى بيئة مفتونة بالبنين ، ولكنهما

ادركا أن الامر فى هذا لله وحده ، وكرها أن يجحدا نعمته عليهما فيبوءا بالخسران ، ومن ثم أقبلا على طفلتهماالثالثة، شاكرين لله ما اعطى ، طامعين مع هذا فى مزيد من كرمه

□

واقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة

وصادف مولدها ، حادثا جليلا فى تاريخ الاب ، وتاريخ مكة الدينى اجمع

فقد حدث قبيل ذلك بأمد قصير ، أن اجمعت قريش امرها على أن تعيد بناء الكعبة ، بعد ان طال ترددها فىذلك، تهيبا واشفاقا

وكانت الكعبة قد اضرت بها شرارة طارت من مجمرة احدى النسوة ، فاحرقت ستائرها واوهت بنيانها ، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذى بأعلى مكة ، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش أمام حرمها الاقدس مكتوفة اليــــدين ، لا تدرى ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذى جعل من «مكة» محج العرب جميعا ومهوى افئدتهم ، وانزل قريشا بحكم جــوارها للحرم ، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها

وبلغها اذ ذاك أن البحر رمى بسفينة رومية جنحتالى جدة ، فسعى اليها رجال من قريش ، وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل مصرى نجار بناء

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ماتزال تتهيب أن تهدم بناءها الاول ، حتى قام « الوليدبنالمغيرةالمخزومى»

فأخـذ المعول وقال : « اللهم لم نزغ ! اللهم انا لا نريد الا الخير ! » ثم اهوى بالمعول والقوم ينظرون اليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى انفسهم جميعا . فلما لم يصبه سوء ، ابوا مع ذلك الا ان يتربصـوا ليلتهم تـلك ، ليروا ماذا يكون . واصبح « الوليد » غاديا على عمله لم يمسسه شر ، فهدم وهدم الناس معه

وتنافست القبائل فى جمع الحجارة لبناء الكعبة ، وشارك «محمد» فى ذلك العمل المجيـد ، فكان ينقل الحجر مع الناقلين ، حتى اذا تم البناء ، اختصمت قبائل قريش فى الحجر الاسود ، كل قبيلة تريد ان تستأثر بشرف رفعه الى موضعه . واشتدت الخصومة حتى انذرت بحـرب ، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال او خمسا ، ونذر الخطر تزداد ، حتى قام فيهم « أبو أمية بن المغيرة المخزومى » — وهو يومئذ أسن قريش كلها — فقال :

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه »

فقبلوا ، وتعلقت عيونهم جميعا بالبـاب تنتظر الحكم المجهول ، وانهم لكذلك ، اذ اقبل رجل شاب ، تام الفتوة ، متزن الخطا من غير تكلف ، رزين من غير فتور ، بهى الطلعة مع جد ووقار ، فهتفوا جميعا لما ان رأوه :

« هذا الامين ، هذا محمد بن عبد الله الهاشمى ، رضينا بحكمه »

واقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة فى الثـوب وقال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم إرفعوه جميعا»
ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به مكانه ، وضعه محمد بيده ودعم بناءه

وكانت سنه يومئذ ، خمسا وثلاثين سنة ، على ما روى ابن اسحاق (١/٢٠٤)

□

وآب « محمد » الى بيته ، حيث ترك زوجته فى الغداة على وشك الوضع ، وسعى الى الكعبة داعيا ، فكان أول ما استقبله عند عودته ، بشرى مولد ابنته الرابعة «فاطمة»

واقترنت هـذه البشرى ، ببشرى نجاة قريش على يد الأمين ، مما كان يتهددها من حرب ودمار

ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشى :

تشاجرت الاحياء فى فصـل خطة
جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقـوا بها ، بالبغض بعد مـودة
وأوقد نارا بينهم شر موقـد
فلما رأينا الأمر قد جـد جده
ولم يبق شىء غير سـل المهنـد
رضينا وقلنـا : ألعدل أول طالع
يجىء من البطحـاء من غـير موعد
ففـاجأنا هـذا الامين محمد
فقلنا : رضـينا بالامين محمد

واقبل « محمد » على زوجته مهنئا اياها بسلامة الوضع، ثم تلقى طفلته الرابعة يبارك مولدها فى ذلك اليوم الاغر ،

وكانما رأى فى ذلك الاتفاق ، آيةمن الله،تحبباليه رزقه، وتصرف سمعه عما كان يقال حينـــذاك عن أبوته لاناث اربع !

وتطلع الى السماء شاكرا حامدا ، راضيا بما ياتيه من عند الله ، مستشار الرحمـــــة والحنان على تلك المخلوقات اللطيفة البريئة ، يتلقاها القــوم كارهين ، وما جاءت الى الدنيا مختارة ، ولا هى بمسئولة عن تخلف البنين !

ثم رنا الى زوجتـــــه فى عطف وتأثر ، يريد أن يبث فى نفسها الطمأنينة والرضا ، وان يهون عليها أمرا لابد لها ولا لأحد فيه ، وانما تلك ارادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ، ولا معقب على ارادته

لكن « خديجة » لم تكن فى حاجة الى مواساة ، فانها ما كادت تملأ عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها قلبها وقد رأت فيها صورة طبق الاصل من ابيها !

فأدركت أن الله حبا هذه الوليدة بعناية منه ، حينبرأها على مثال « محمد » العزيز ، فكان شبهها الغريب به ، كافيا وحده لأن يحميها من سوء الاستقبال ، ويفجر لها أسخى ينابيع الحب والاعزاز ، فى قلب هـــذه الام التى اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجة محمد ، وأرضاها كل الرضا ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد أن نفضت يديها من الرجال ، وأوصدتْ قلبها على يأس

الشقيقان

وبقى للأبوين ــ كى تتم سعادتهما ــ مطلب واحد ، أن يهبهما الله مولودا ذكرا ، بعد أن من عليهما باناث أربع

وبدا الامل بعيدا ، اذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت بعد مولد فاطمة سن الخمسين ، لكنها مع ذلك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من الولد رغم السن العالية ، ولااخلفتها عادتها الشهرية المؤذنة بصلاحيتها للحمل ، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء فى فضل الله

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامهما « القاسم » ثم تلاه « عبد الله » فتضاعفت الفرحة بمولده ، حين ظن ان لا رجاء

لكن الله لم يشأ لهما ان يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر

أما متى ولدا ، وكيف وأنى ماتا ، فالمؤرخون وكتاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد فى ذلك الامر مع ماله من اهمية قصوى فى حياة الاسرة المحمدية والتاريخ الاسلامى، وعلى قرب عهد ابنى محمد ، بمبعث الاب الكريم

واعجب من هذا ، انهم اختلفوا فى عدد الذكور من ابناء محمد وخديجة ، وهل كانا اثنين ، أو كانوا ثلاثة ، أو أربعا

فالذى فى السيرة (٢٠٢/١) قول ابن اسحاق : « اكبر بنيه : القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر ... فأما القاسم

والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهلية ، واما بناته فكلهن ادركن الاسلام فاسلمن وهاجرن معه »

وفى (الروض الانف : ١٢٣/١) رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمى بالطاهر والطيب لانه ولدبعد النبوة ، واسمه الذى سمى به اولا عبد الله

« وبلغ القاسم سن المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت عند ما مات »

وفيه كذلك ، فى الموضع نفسه ، أن خديجة رضى الله عنها : « دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد المبعث ، وهى تبكى ، فقالت : يارسول الله ، درت لبينة القاسم ــ تصغير لبنة ، تعنى بها بقايا اللبن فى ثديها ــ فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه لهون على . فقال الاب الرسول : ان له مرضعا فى الجنة تستكمل رضاعته . قالت : لو أعلم ذلك لهون على . فقال النبى : ان شئت اسمعتك صوته فى الجنة . فأجابت : بل اصــــدق الله ورسوله »

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا فىالاسلام كأخيه عبد الله، الذى لقببالطاهر والطيب لمولده فىالاسلام على ما نقل عن « الزبير » ابن أخى السيدة خديجة

وفى الاصابة ، فى ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين :

« فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ، سمى بذلك لانها ولدته فى الاسلام ــ ٦١/٨ »

وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيمايختص بعدد أبناء محمد ، فقد التبس اللقب بالاسم ، وجعـــل الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم

وعبد الله فهم اربعة ، وما الطيب والطاهر ـ على الارجح ـ سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون للنبى من خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المختار عند جمهور المسلمين

اما فيما يتصل بوقت ولادتهما ووفاتهما، فالتوفيق فيهما اشق وأعسر ، فقد انفرد « ابن اسحاق » بالرواية عن موتهما فى الجاهلية ، على حين ذكر غيره ان القاسم ولد فى الجاهلية ومات فى الاسلام ، وأما عبد الله فولد ومات فى الاسلام ، وكان من الممكن ترجيح رواية ابن اسحاق ، اذ هو شيخ كتاب السيرة ، وكتابه اقدم مرجع بين ايدينا ، لكنما يحول دون الاخذ بروايته فى طمأنينة ، انه انفرد بها دون اسناد ، وأن الذين خالفوه ، ذكروا فى سندهم «الزبير ابن العوام » وهو ابن أخت السيدة خديجة ، وأحدالعشرة السابقين الى الاسلام

وايا ما كان الامر، فالذى لاريب فيه ان البيت المحمدى لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين قبيل المبعث او فى مستهله ، ولعلنا لو حاولنا أن نلتمس دليلا يؤيد هذا ، لوجدناه فى « سورة الكوثر » حيث يقول الله تعالى لنبيه الكريم :

« انا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . ان شانئك هو الابتر »

وسورة الكوثر ، مكية مبكرة ، فهى الخامسة عشرة فى ترتيب تاريخ النزول ، بين السور المكية التى بلغت عدتها تسعا وثمانين سورة . والمتفق عليه ان الكوثر نزلت فى « العاص بن وائل السهمى » ، احد اشراف مكة الذين ساروا الى ابى طالب يسألونه ان يرد ابن أخيه عن دعوته

وقد نقل « ابن اسحاق » فى (السيرة ٢/٣٨) أن

العاص اشترى سيوفا من خباب بن الارت ، وكان قينـــا بمكة يعمل السيوف ، فجاء خباب ـ وقد أسلم ـ يتقاضى العاص ثمنها فاستمهله الى يوم القيامة قائلا فى سخرية وقد غره ما أنعم الله عليه به من مال وولد :

« اليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى انت على دينه ان فى الجنة ما ابتغى اهلها من ذهب أو فضة ؟ فأنظرنى يا خباب الى ذلك اليوم فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا تكون انت وصاحبك آثر عند الله منى »

فانزل الله تعالى فيه :

« افرايت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا »
الى قوله تعالى : « ونرثه مايقول ويأتينا فردا »

وكان العاص ـ فيما نقل ابن اسحاق كذلك ـ « اذا ذكر الرسول قال لقومه : دعوه ، فانما هو رجل ابتر لاعقب له ، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم من ذكره » فانزل الله فى ذلك سورة الكوثر (السيرة ٢/٣٤)

ويقول « الزمخشرى » فى تفسير آية الكوثر : « ان من ابغضك هو الابتر لا أنت ، لان كل من يولد من المؤمنين الى يوم القيامة من المؤمنين فهم اولادك واعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر الدهر ، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك ، فمثلك لا يقال له أبتر ، وانما الابتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة ، وان ذكر ذكر باللعن ـ الكشاف ٤/٢٣٧ »

وما نرتاب فى أن ذلك الشانىء ، لم يدر بخلده يوم عير محمدا ، أن ذكر ابن عبد الله سوف يبقى خالدا عاطرا ماعبد الله فى الارض

لقد كان أقصى ما يتصوره هو والمشركون من قريش ، ان يستأثر حفيد عبد المطلب الهاشمى دونهم بالزعامة فى مكة ، وربما امتد سلطانه الى القبائل القريبةالمجاورة فيبقى له الأمر ما عاش ، ثم ينقطع ذكره بموته ، أما أن يمتد سلطانه من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، ويخلد ذكره على مر العصور والآباد ، فذلك مالم يكونوا يتصورونه وقد عاشوا حتى ذلك الحين محصورين فى جزيرتهم لا يكادون يخرجون عنها الا رحلا او متاجرين

وما كانت قرشية « محمد » الصميمة الخالصة ، لتهون عليهم انتقال السلطان اليه ، فان المنافسة على الشرف بين بيوت قريش كانت على اشدها

حدثوا أن الاخنس بن شريق الثقفى اتى ابا الحكم بن هشام بن المغيرة فساله : يا أبا الحكم ، ما رايك فيما سمعت من محمد ؟ فأجاب :

« ماذا سمعت ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: اطعموا فاطعمنا ، وحملوا فحملنا ـ يعنى الديات ـ واعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! فمتى ندرك مثل هذه ؟! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » السيرة ٣٣٨/١

على ان النزاع بين بنى عبد مناف أنفسهم لم يكن الا شبيها بهذا أو أمر منه ، فقد كان هناك البيت العبشمى والبيت الهاشمى ، يتنازعان ما استرده أبواهما « عبد شمس وهاشم ابنا عبد مناف » من ميراث جدهم «قصى» الذى كان قد وصى بما بيديه من مناصب الشرف لولده « عبد الدار » كى يلحقه بأخيه « عبد مناف » الذى شرف

فى زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وقد ظهر محمد بدعوته السماوية ، وفى بنى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة، وفى بنى عبد شمس بن عبد مناف اللواء ، ونذكر هنا مامر بنا من خبر قيام قريش فى وجه « عبد المطلب بن هاشم » حين هم بحفر بئر زمزم ، كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف، فهل تراهم تاركين حفيد عبد المطلب يظهر بدعوته نبيـــا ورسولا من السماء ؟

الى ذاك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش ، فلا عجب أن بات القوم يتعللون بانقضاء ذكر محمد بموته ، ويقول قائلهم مهونا عليهم الامر :

« دعوه فانما هو أبتر ! »

أما محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يعلم أن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومخلد دعوته ، دون حاجـة الى ولد من صلب الرسول المختار ، يرثها وينهض بها من بعده !

□

ولست بالقائلة مع هذا كله أن محمدا تجـرد من حب البنين ، فما كانت بشريته ، صلى الله عليه وسلم ، لتسمح له بذاك ، ولا كانت فطرته النقية السوية بالتى تجمد فيها اسمى المشاعر الانسانية وتنزع منها غريزة كهذه يرتهـن بها حفظ النوع وعمران الكون

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : أولهما على بن ابى طالب ، وكانت قريش قد أصابتهـــا ازمة شـديدة وأبو طالب ذو عيال ، فقال محمــد لعمــه العباس أغنى بنى عبد المطلب :

« ان اخاك ابا طالب كثير العيال ، وقد أصاب النـاس ما ترى من هذه الازمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجلا وتأخذ انت رجلا فنكلهما عنه »

ووسع محمد لابن عمه على مكانا فى بيته ، وفى قلبه ، ثم زوجه ، بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن اليه

اما الثانى فزيد بن حارثة الكلبى ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائى ، خرجت به صبيا لتزيره اهلها فى طيىء فأصابته خيل من بنى القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد ثم قدمه الى عمته خديجة التى وهبته لزوجها قبل المبعث ، فأعتقه وتبناه ، واذاع فى الملأ من قريش انه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى زيد بن محمد ، حتى جاء أمر الاسلام : « ادعوهم لآبائهم » فدعى زيد بن حارثة ، وظل مع ذلك اثيرا عند الرسول مقربا منه عزيزا عليه !

□

وقد ظل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى اخريات اعوامه يشتاق الولد ويلتمس الوسيلة اليه ، حتى اذا وهبه الله على الكبر غلاما ، امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناءة وفرحا ، لولا ان الله لم يمهل « ابراهيم » غير ثمانية عشر شهرا ثم قبضه اليه، فحزن الاب الثاكل لفقده اشد الحزن ولم يكتم المه، ولا ملك دموعه، وان ظل على الحزن مستسلما لقضاء الله الذى شاء لحكمة سامية الا يكون لمحمد فى تلك البيئة المفتونة بالبنين ولد ذكر ، وان دان برسالته ملايين البشر فى مشارق الارض ومغاربها

حب النبى لبناته

آن لنا أن نستأنف الحديث عن بنات محمـــد ، اللواتى كتب لهن أن يعشن دون اخوتهن من البنين ، وان يتزوجن جميعا فى حياة أبيهن العظيم ، كما كتب عليه أن يثكل ثلاثا منهن فى عز شبابهن ، ولا يبقى له غير فاطمة الزهراء

ولا نعلم ان احدا ممن عاصروا محمدا وحاربوه نبيـــا رسولا ، قد جحد حب محمــــد لبناته جميعا ، أما أعداء الاسلام المحدثون من المستشرقين ، فيأبون أن يصدقوا انه احب بناته ذلك الحب الغامر الذى يبدو لهم شاذا ، وقد ركزوا حملتهم بوجه خاص على الانباء المستفيضـــة بحب الرسول لفاطمة ، زاعمين ــ كما سنرى بعد فى الفصـــــل الخاص بالزهراء ــ انها انباء اخترعت بعد عهد الرســـول بزمن ، عندما ظهرت فكرة التشيع !

ولا نتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل ، وانمــــا حسبنا ــ مؤقتا ــ أن نقدر حين نذكر حب محمد لبناته الاربع ، اثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتى دخلن فى حياته قبل أن يغدو أبا : امه آمنة بنت وهب ، وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدها ، وفاطمة بنت اســـد بن هاشم ، زوجة أبى طالب التى كانت له من بعد امه اما ، والتى سمع رسول الله يقول انه لم يجد ابر به منها بعد

ابى طالب ، وخديجة بنت خويلد ، زوجته الحبيبة التى انسته مرارة يتمه وحرمانه ، وملأت دنياه حبا وحنانا وطمانينة وسلاما

ثم لماذا لا نقول ان الله اراد أن يروض الرجل الذى سوف يصطفيه نبيا ، على احتمال ابوة الانوثة والصبر عليها ، كيما يعده للرسالة الخطيرة التى سوف يعهد اليه بتبليغها، ولكى يعلمه الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ، الأربع ، اثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتى دخلن فى المستضعفة التى تشبه القوارير !



الشقيقات الاربع

خرجن الى الدنيا فى أكرم منبت ، وانبتتهن سلالة قرشية عريقة أصيلة ما يعرف العرب أعز منهاولا أنقى، واستقبلهن البيت الكريم استقبالا لم تظفر بمثله لداتهن ، فقد كن ثمرة زواج سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة، يرى فيهن الاب صورة لطيفة من زوجته الحبيبة التى انسته بحنانها الغامر كل ماذاق فى طفولته من يتم ، وكانت له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان

وتجد فيهن الام ، فلذات حية من رجلها العزيز الذى بهرها منذ عرفته بجلال طلعته ، واسرها بنبل شخصيته، وفتنها بجميل خصاله ، فتفتح له قلبها واقبلت على الحياة من جديد

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشظف العيش ، ولا اذبلها الحرمان

ودرجت حياتهن الاولى على ما نعرف من تقاليدالبيوت القرشية العريقة ، فالتمست لهن ـ واحدة بعد الاخرى ـ خير المراضع بعيدا عن حر مكة الخانق وقيظها المنهك ، حتى اذا أدركن سن الفطام عدن الى حضانة الام التىكانت لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت «محمدا» من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وتركت للزوج

الامين الاشراف على استثمار ثروتها الواسعة ، وأقبلتهى بكل كيانها تشرف على دنياها الجديدة ، غير ملقية بالاالى ما وراء جدران بيتها السعيد .

واكسبتها تجربتها السابقة فى الامومة ، خبرة بخضانة الصغار ودراية بتربيتهم، فأسرعت فتياتها الى النموبفضل ما تهيأ لهن من رعاية مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب ، واذا كانت ثروة الاسرة قداتاحت لها استخدام من تشاء من الجوارى والغلمان ، فالحق أن عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شئون الخدمة الى حضانة الاطفال ، اذ حرصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها تلك المهمة العظيمة ، كيما تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن، ومالى مكة من تدانيهن شرفا ونعمة.

حتى اذا شبت كبراهن « زينب » عن الطوق ، بادرت امها بتمرينها على المشاركة فى العبء الباهظ الجليل ، واخذتها مبكرة ماخذ الجد ، ونات بها عما يشغل لداتها واترابها من عبث الطفولة ولهوها ، فكانت « زينب » لشقيقتها الصغرى « فاطمة » أما صغيرة ، ترعى شئونها وتمضى فراغها فى ملاعبتها ، كيما تعفى امها من بعض مشاغلها وقد علت بها السن وجاوزت الخمسين منعمرها

وقرب هذا الوضع مابين زينب وفاطمة ، كما أوجد تقارب السن الفة خاصة بين الاختين رقية وأم كلثوم ، فكانتا رفيقتين متلازمتين ، يجمعهما اللعب المشترك والفراش الواحد ، والطباع المتشابهة ، والسمت المتماثل ، حتى لكأنهما توأمان !

وصارت حياة الشقيقات هكذا رخية هانئة حتى تزوجت كبراهن زينب، فافتقدتها اخواتها وشعرن بالوحشة لغيابها، ولبثن ليالى عديدات ينظرن الى فراشها الخالى فيخامرهن احساس مبهم يختلط فيه الفرح بالاسى، ودار سمرهن طوال هاتيك الليالى، حول الزواج، وقد أعياهن أن يدركن كنه هذا النظام الذى ينتزع الفتاة من أحضان أسرتها، ويلقى بها وحيدة الى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب!

وكانت صغراهن فاطمة، بحكم طفولتها، اجهلهن لحكمة الزواج واشدهن سخطا عليه، فما ارضاها قط ان يبعدوا عنها « أمها الصغيرة » التى طالما لاعبتها ودللتها واعتنت بها، وانها لتسائل اختيها كيف هان على الاسرة ان تستقبل حادثا كهذا، بالفرح المعلن، وتحتفل به فى بهجة وسخاء، وكان اولى بها ان تتمسك بزينب أو لا فلتودعها كارهة، بغير احتفال

وتحاول رقية ــ متأثرة بشعورها ان الدور عليها ــ ان تهون الامر على اختها الصغرى فاطمة، وان تقنعها ان ابويها ما كانا ليسلما « زينب » الى زوجها فى احتفال بهيج كالذى كان، لولا ثقتهما ان فى هذا خيرها وسعادتها

لكن فاطمة تصر على رايها فى الزواج، حتى يبدو لام كلثوم ان تدلى برايها فتقول لاختيها:

ــ من يدرى؟ لعل هذا الفرح مفتعل، ولعل ضجة العرس انما قصد بها شغل العروس عن التفكير فى قسوة التجربة الجديدة التى تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها ومرتع صباها

واذ تحس من اختها « فاطمة » بوادر الاقتناع، تمضى

مزهوة برأيها ، فتلفت نظر أختيها الى ما بدا على أمهما بعد فراق زينب من شجو تحاول أن تكظمه ، فتفلت منها بوادر واشية به دالة عليه

ثم تسالهما :

ـ اما سمعتماها غير مرة تنادى « رقية » باسم «زينب» ثم تنتبه فجأة ، فتستدرك بصوت رقيق حالم : ويحى ! لقد نسيت أن زينب لم تعد هنا !

فتردد فاطمة فى اسى :

ـ هو ما تقولين

اما رقية فتجيب :

ـ انك تبالغين يا أم كلثوم ، فالواقع ان امنا قد الفت ان تنطق باسم زينب ، وليس فى سبق لسانها بهذا الاسم ما يستغرب ، وانما هو حكم الالف وسلطان العادة

ولكن « أم كلثوم » تستطرد قائلة دفاعا عن وجهة نظرها :

ـ فما قولك اذن فى ابينا ؟ أو ما تلاحظين عليه منذ حين انه يأنس الى الخلوة ويميل الى الوحدة ويجنح الى الصمت والتامل ؟ أو ما يبدو عليه فى هذه الايام انه مشغول البال بهم يطويه ؟

فهتفت « فاطمة » وهى تنتفض حبا وحنانا :

ـ يا لابى العزيز ! انه لكما ذكرت يا أم كلثوم

وقالت رقية :

ـ وما يدريكما أن لفراق « زينب » صلة بميل أبينا الى العزلة ، وشغفه بالخلوة ؟

فهزت « أم كلثوم » راسها وهى تقول بلهجة ذات مغزى:

ــ ما اراك يارقية الا تعدين نفسك لمثل مصير زينب ، وقد جاء دورك !

فردت « رقية » فى غير انفعال :

ــ ماخطر لى هذا يا اخت ببال

وعقبت فاطمة :

ــ فلتتزوجا انتما وليبارك الله لكما ، أما انا فلست بتاركة ابوى ما استطعت الى ذلك سبيلا

ولم تدر « فاطمة » وهى تلقى هذه العبارة أنها كانت تنطق بلسان القدر !

فما مضى على زواج « زينب » غير قليل ، حتى خطبت اختاها رقية وام كلثوم ، وبقيت هى فى بيت أبيها ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا

□

الى هنا ينتهى الفصل الاول من حياة الشقيقات الاربع، بانتهاء حياتهن المشتركة فى بيت أبويهن ، ويبدأ فصل آخر نرى فيه كل واحدة منهن وقد واجهت دنياها الجديدة واستقلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول أن نتبع كلا منهن على حدة ، لنصحبها فى ذلك الدور الثانى من حياتها ، ونرى مافعلت بها الايام ...

زينب الكبرى

العروس الهاشـمية ــ ابن الخالة ــ
سعادة لم تطل ــ ليـل لايبدو له
آخر ــ الأسير والقلادة ــ مسلمـة
ومشرك ــ طارق بليل ــ الفـراق
الأخير ــ ذكرى !

لم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت اليها عيون الهاشميين ، وتنافست بيوتات مكة على الظفر بهـا عروسا لمن يختاره لها أبواها من كرام الفتية القرشيين

ولكن واحدا منهم ، لم يكن له من الامل فى الزواج من « زينب » مثل ما لابن خالتها « أبى العاص بن الربيع »أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا ، فلقد أتيحت له فرصة لم تتح لسواه ، اذكانت خالته « السيدة خديجة » تنزله منزلة الابن ، فتهيأ له بذلك أن يغشى بيت محمد كلما أراد ، فيجد من الترحاب البالغ والود الصادق ، مايطمعه فى أن يكون الزوج المختار لزينب ، تلك التى خفق لها قلبه منذ حداثتها الباكرة ، فراح يرمقها وهى ترقى سراعا فى مدارج النمو ، وتتفتح للصبا ملء البهاء والاشراق

وكان مكانها فى بيت أبيها ، ككبرى بنات أربع ، قد أسرع بها الى النضوج قبل الاوان ، بما ألقى عليها من عبء المشاركة فى حضانة أخواتها ، مع الام الكريمة التى كانت حينذاك قد جاوزت عامها الخمسين ، وأجهـدتها بلا ريب مشاق الحمل والوضع المتتابع دراكا فى العقد الخامس من عمرها ، فأضفت هذه المشاركة على « زينب » طابع الانوثة الناضجة ، ولما تزل ندية الصبا غضة الاهاب

وكان « أبو العاص » يراها كلما ألم ببيت خالته ، فيؤخذ بجلال مرآها وعذوبة حنانها وذكاء ملامحها ولطف طباعها وتفتح أنوثتها

وكانت مشاغله الجسام تمسكه أحيانا عن الالمام ببيت خالته ، وبخاصة فى المواسم الكبرى حين تزدحم مكة بأفواج الساعين اليها من الحجيج والتجار، كما كانت رحلاته التجارية المتصلة ، الى الشمال والى الجنوب ، فى الشتاء والصيف ، تحبسه عن البلد الحبيب فترات قد تمتد وتطول حتى تبلغ احداها أشهرا ذوات عدد ، وربما لقيته فى بعض هاتيك الرحلات ، نساء وفتيات ، من ساحرات البادية ، وفاتنات اليمن ، وجميلات الشام ، لكنه كان أبدا يرنو الى مكة على البعد ، خافق القلب مستثار الحنين، ويستصحب معه أنى سرى وحيثما سار ، طيفا من تلك الصبية الرقيقة الوديعة، التى يتألق وجهها بابتسامة حلوة ، وتفيض ملامحها بعذوبة آسرة ساحرة

ولم يغب عن باله قط أن الفتية الامجاد من آل هاشم يرنون الى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطمئن الى مواتاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعا من تتاح له مثل مكانته فى بيت محمد ، أو تتهيأ له فرصة التلطف فى كسب ود « زينب » والوسيلة الى الظفر باعجابها وتقديرها

وأبت عليه ثقته فى نفسه أن يدخل مع منافسيه فى معركة مكشوفة ، بل اكتفى بأن يودع سره الغالى لدى خالته الرءوم ، وانصرف مطمئنا ، الى تدعيم مركزه وبناء مجده ، ليكون لزينب نعم القرين

وكذلك أبت عليه فطنته أن يحاول كسب عواطف فتاته فى عجلة ، أو أن يطرق باب قلبها البكر فى عنف، فهى على نضجها واتزانها ما تزال الصبية الغريرة الخجول ، وأى تسرع فى الكشف لها عن حبه قد يخدش حياءها العذرى ويجرح

براءة صباها ، وهو ما كان ابن الخالة يخشاه ويتقيه

وقد كلفه هذا الموقف جهدا غيرقليل ، وفرض عليه قيودا ثقالا من الكبت والحرص والحذر والتأنى ، ولكنه فى الوقت نفسه ، جعل « زينب » تطمئن اليه وتأنس له فى غير حذر ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل رجولته التى أنضجتها التجربة والرحلة ، ماجعلها تعتز به أخا ، ولا ترى فى فتيان قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وان وزنوا به أصالة ونسبا ، وربما مالا كذلك

وقد اعتاد « أبو العاص » أن يجعل بيت محمد قبلته بعد الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت « زينب» ترتاح الى محضره، ويطيب لها أن تصغى الى مافى جعبته من طرائف وغرائب التقطها من مدرسة الأسفار ، وكأنما كانت ترى فى وعيها لحديث رحلاته ، وفهمها لكلامه عن الدنيا والناس ، آية رشدها الذى تميزت به عن لداتها وأترابها

وربما جاءها فى بعض أوباته من الرحلة بحلية جميلة أو هدية مناسبة ، فتتلقاها فى بشر حلو ،وترى فيها تحية جميلة لما يربطهما من أواصر المودة والقربى

وهكذا تفتح له قلبها البكر على مهل،فأحست تلك اللمسة الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها فى رفق ولطف ، وكانت أمها الى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لاتنام ، وقد أرضاها بلا ريب أن يظفر « أبو العاص » بقلب « زينب » والا فما كانت خديجة بالتى تفرضه على ابنتها لو أن قلبها ظل مغلقا دونه

و«خديجة» قد عرفت الحب الطاهر وتذوقت من رحيقه العذب ، وخرجت من تجربتها العبقرية الفذة ــ التى بدت

فى حينها أشبه بمغامرة أسطورية ـ أشد حماسا للزواج القائم على الحب المتبادل ، وأعمق ايمانا بأنه النعمة الكبرى التى تهبها السماء للموعودين السعداء

وتلطفت السيدة الام ، حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التى لمست قلب فتاته الأولى ، فرق قلب الاب النبيل للحبيبين العزيزين ، وتمثلهما وهما يترشفان فى حياتهما الزوجية ، من ذاك النبع العذب المبارك الذى شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون أن يضجر أو يمل

هنالك أشارت «خديجة» على ابن أختها أن يتقدم الى محمد أبى زينب خاطبا ، وكان بودها لو تمهلت فترة لتستبقى ابنتها الكبرى الى جانبها ، لكنها رأت تهافت الفتية القرشيين على مصاهرة الهاشمى الامين ، وخشيت اذا هى تريثت أمدا ، أن يسبقوا « أبا العاص » الى طلب يد «زينب» فيكون ثمت شىء من الحرج لاترضاه لزوجها العزيز

□

وقد أحسن «محمد» لقاء «أبى العاص» كما اعتاد دائما أن يفعل ، وأصغى بملء سمعه اليه وهو يعرب له عن رغبته فى الزواج من «زينب» • ثم كان جوابه ، أنه نعم الصهر الكفء ، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهله ريثما يعلن هذه الرغبة الى ابنته ، فانها لأهل لان تكون صاحبة الكلمة الاولى فى أمر جليل كهذا ، يعنيها أكثر مما يعنى أى فرد سواها

وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو «أبى العاص»

ورأيها فيه ، لكنه ، على مايعرف من هذا كله ، لم يشأ أن يقطع في الامر دونها ، وأراد بعدكل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد الى أمها أن تسبقه اليها بالنبأ السعيد ، ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

ـ بنيتي زينب ، ان ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك .

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا ، فقد كان يعرف أن حياءها سوف يمسك لسانها عن الرد ، اللهم الا اذا كانت تأبى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الامر على ماتكره

وتلبث الاب برهة يصغى ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ، ودعوات الام الحنون ، واذ ذاك عاد الى حيث ترك أبا العاص ينتظر ، فصافحه مهنئا داعيا مباركا

□

وذاع النبأ السعيد في مكة ، فوجمت له قلوب شبانها الذين طمعوا في الظفر بالعروس الهاشمية ، لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يذم الصهر المختار . أقصى ما قالوه يومئذ أن بني العم كانوا أولى بزينب من ابن الخالة ، ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبي العاص الا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون أن يقولوا الا خيرا ؟

قرشي صميم ، يلتقي نسبه من جهة الاب مع محمد بن عبد الله ، عند عبد مناف بن قصى ، فهو « أبو العاص بن الربيع ابن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى »

ويلتقى نسبه من جهة الام مع زينب بنت محمد ، عند جدهما الادنى خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه « هالة بنت خويلد » أخت خديجة الطاهرة ، زوج محمد وأم زينب

وكان الى جانب ذلك الاصل العريق والعرق الطيب ، كريم الخصال نبيل الشخصية ، حتى لقد لقبه قومه بالامين، كما لقبوا محمد بن عبد الله

وأتاحت له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم اليه ما جعله يثب الى الصف الاول من صفوف التجار، وهم يومئذ سراة مكة وأثرياؤها

ولقائل أن يقول ان السيدة خديجة ساعدت أبا العاص على تحقيق رغبته ، وأعانت على اختياره زوجا لزينب، ولآخر أن يقول ان محمدا كان بحيث يؤثر الهاشميين ، لو لم يكن أبو العاص ابن أخت خديجة ، وهى من هى فى حياة محمد وفى قلبه وفى دنياه

ولكن اذا كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام ابن الربيع ، فقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب والموروث ، مايزكيه ويغنيه ، ويفتح له أى بيت شاء من بيوتات مكة ، ويزف اليه أى عروس يختارها من زهرات المجتمع القرشى العالى

□

تهيأ البيت المحمدى للعرس ، وامتلأ بذلك الضجيج المحبوب الذى يقترن عادة باعداد بيت جديد • وقدبعث « محمد » فى طلب أزكى العطور والاطياب ، كما أرسلت

خديجة من يجوبون الاسواق القريبة ، ويترصدون من يفد على مكة من التجار ، ليأتوها بخير ما يحملون مما يصلح للعروس • على حين مضى أبو العاص يعد بيته لاستقبال الوافدة الغالية ، ويسخو فى هذا السبيل بما يتيحه له ثراؤه من مال

▭

وآن موعد الزفاف ، فبدت « زينب » فى جلوة العرس رائعة البهاء ، ورددت أرجاء مكة أصداء الحفل البهيج ، ونحرت الذبائح ودعي اليها كل من أظلته سماءالبلدالعتيق

وصحبت الاسرة المحمدية عروسها الى بيتها الجديد ، ولبثت هنالك وقتا تبارك الزوجين ، وتهون على الغالية مشقة فراقها لبيتها الاول الذى حلت فيه تمائمها ، ثم تركتها فى رعاية زوجها الكريم

وهنالكأظلتزينب وزوجها أبا العاصسعادة غامرة،وأتاح لهما الحب المتبادل أنينعما بالعيشفىظل الزوجيةالموفقة،وان مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت، ذلك أن أبا العاص كان مضطرا الى السفرفى تجارته،فيمضى تاركا قلبه في مكة ، وتحاول « زينب » أن تتجلد للفراق، وتستعينعليها بزيارة بيتأبيها،فرارا من وحدتها والتماسا لبعض التسلى ، واستروا حا لذكريات طفولتها السعيدة ، وهنالك كانت تشهد مايلوح في أفق الاسرة من طلائعذلك الغد المغيب ، وقد كثر انقطاع أبيها الى التعبد والتأمل فى خلوته بغار حراء ، وبدت أمها ولا شغل لها الا أن ترمقه على البعد ،وتهيىء له مافى طاقتها من أسباب الراحة والهدوء

وتنشاغل «زينب» بالمشاركة فى تدبير شئون الدار لكى تتيح لامها الفراغ للتفكير فى الحبيب واعداد زاده والسهر على سلامته ، حتى يغود «أبوالعاص» منسفره فترجعزينب الى بيتها حيث تفضى الى زوجها بما يساورها من قلق،فيبث فى نفسها الطمأنينة ، ويردها الى مألوف حالتهـا من دعة واشراق

ثم من الله عليهما بوليدة سماها جدها « أمامة » فكانت لهما قرة عين ...

وذات صباح ، سعت « زينب » مبكرة الى بيتأبيهاوأبو العاص على سفر ، فالتقت لدى الباب بأمها عائدةمن زيارة عجلى لابن عمها « ورقة بن نوفل »

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هـذه الحال من الانفعال والاهتمام والاشتغال ، وقد راعها أن مرتبها فلم تكد تراها ، بل اندفعت لاتلوى على شىء نحو مخدع زوجها، حيث تلبثت هناك فترة غيرقصيرة ، قبل أنتخرج الى بناتها وقد عاودها هدوؤها وبانت عليها راحة البال

وأصغت « زينب » الى أمها وهى تحدثها حـديثا عجبا عن نزول الوحى على أبيها صـلى الله عليـه وسـلم اذ كان يتعبد فى حراء ، فأخذت بما سمعت حتى لم تحر جوابا ، ذلك أن الامر كان من الخطر والجلال بحيث قصرت عنادراكه وأعياها أن تبلغ مداه

ولبثت فىمكانها ساكنة لاتريم ، وأفلت منهازمامأفكارها فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهى ، بل خيـل اليها أنها تسبح نائمة فىبحر لجى لاتدرك عبره !

حتى ردها الى يقظتها صوت أختها فاطمة تقول :
ـ أو مايسرك يا أختى أنك بنت نبى هذه الامة ؟
اجابت بعد تأمل صامت :
ـ أجل والله يا فاطمة ، وأية فتاة لايزدهيها هذا الشرف الذى مابعده شرف ؟ لكنه الذى سمعت وسـمعت من قول خالى «ورقة» : ليكذبن أبى ، وليؤذين ، وليخرجن وليقاتلن!

ففكرت « فاطمة » مليا وقد عز عليهـا أن يؤذى أبوها ، ثم رفعت وجهها وقالت لأختها :
ـ هو والله ماقالت أمى لأبى :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت،والله لايخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم وتصـدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمـة ، وان أحست كلتاهما أن لهذا الامر ما بعده !

□

عاد « أبو العاص » من رحلته ، وملء سـمعه شائعات تناقلها الركبان ، عن ظهور « محمد بن عبد الله » بدين جديد
وأسرت اليه زوجته « زينب » بالنبأ اليقين ووجهها يفيض بشرا وأملا وفخرا ، فماراعها الا أن أمسك صامتا لايعقب
وسألته :
ـ مابك يا ابن الخالة ؟
أجاب وهو يضمها الى صدره :
ـ بى يا حبيبة انى خائف

ثم أرسلها من بين ذراعيه وهو يردد كمن يحدث نفسه:
ـ لو تبعتـــه لقال القـوم : فارق دين آبائه ارضـــاء لزوجه وحميه ، ولوخالفته ...

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته فى لهفة وضراعة:
ـ لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق .
ورنت اليه طويلا قبل أن تقول :
ـ وأنا بعد قد أسلمت يا ابن الخالة
قال وقد أسقط فى يده :
ـ أو قد فعلتها يازينب ؟
أجابت :
ـ ماكنت لأكذب أبى ، وانه والله لكما عرفت : الصادق الامين

ثم أضافت :
ـ وكذلك أسلمت أمى وأخوتى، وعلى ابن العم أبى طالب، وأبو بكر ، وأسلم من قومك ابن عمك عثمان بن عفان بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد

فلم يبد عليه أنه أصغى الى ماتقول ، بل استطرد متسائلا وفى صوته رنة أسى وملام :
ـ فهل فكرت يا زينب حين تبعت دين أبيك ، فيمايحدث لو بقيت أنا على دين آبائى ؟
فهزت رأسها وهى تجيب :
ـ كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق الى الاســلام كما سبق اليه من قومك عثمان والزبير

فانثنى موليا ، وخرج الى دار الندوة ، وبقيت هى تنتظر على جمر

وآب اليها فى غسق الدجى واجمـا مطرقا ، فلم تحاول أن تسأله عما به، بل تركته حتى جلس وقال من تلقاء نفسه بصوت حزين :

ـ لقيت أباك اليـوم فى الـكعبة يازينب ، ودعانى الى الاسلام .

ثم لم يزد ..

وكان فى وجوم ملامحه ، وترنح صوته ، مايغنى زينب عن سؤاله : بم أجاب الدعوة

ووقفا فى أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والاسى ، فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتى هما بعناق، ثم ما لبثا أن تراجعا فجأة ، وكأن حاجزا غير مرئى يقف بينهما فيحول دون مايبغيان من شعور بالتدانى ، والتماس كل منهما فى صاحبه ملاذا وسكنا

ولم يناما ليلتهما ، ولا مابعدها من ليال ، اللهم الا أن يغلبهما الكلال فيغفوا مجهدين ، غفوات خاطفـة ، حائرة ممزقة .

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ماتكابد :

ـ والله ما أبوك عنـدى بمتهم ، وليس أحب الى من أن أسلك معك ياحبيبة فى شـعب واحد ، لكنى أكره لك أن يقال ان زوجك خذل قومه وكفـر بآبائه ارضاء لامرأته ، فهلا قدرت وعذرت !؟

فتندت عيناها بالدموع ولم تجب ، وانخايلها الامل فى أن تنجلى الغمة عن قريب ، كما منتها أمها خديجة

على أن الغمة لم تنجل سراعا ، بل طال عليها الأمد وجاوزت المدى، وهذه قريش قد لجت فى عداوتها للرسول، وامعنت فيمن اتبعوه اذى واضطهادا حتى اثخنتهم بالجراح واخرجتهم من ديارهم واموالهم . ثم لم يكفها كل ذاك الذى فعلت بالمسلمين ، بل مدت يد الاذى الى بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لأنهم ابوا ان يسلموا رجلهم الى اعدائه المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التى خرجت بالهاشميين الى شعب أبى طالب بظاهر مكة ، حيث اقاموا هنالك سنين ثلاثا فى حصار منهك

ولم تكن « زينب » فيمن خرج الى الشعب ، لكن أنباء من فيه كانت تأتيها فى دار أبي العاص ، فتروعها بالذى يكابده اهلها هناك

ولم تنجل محنة الحصار ، الا لتسلم الى ليل طويل ، لا يبدو له آخر !

□

ماتت « خديجة »

ومات « أبو طالب »

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين فى النصر على النبى ، وعادت معركة الاضطهاد التى فترت هونا عقب الحصار ، الى اشد مما كانت عليه تأججا وسعيرا ...

وبدأ اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، يهاجرون تباعا فرارا بدينهم من الفتنة والاذى ، حتى لم يبق مع الرسول بمكة الا من حبس او فتن ، غير على بن أبى طالب ، وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما

وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها ، وسرى الهمس فى مكة أن المشركين قد ائتمروا بمحمد ليقتلوه ويستريحوا منه

وأصبحت « زينب » ذات يوم ، ومكة من ادناها الى اقصاها ، تتحدث عن مطاردة قريش لمحمد الذى خرج من « مكة » وليس معه سوى صاحبه أبى بكر الصديق

وأوجست فى قلبها خيفة « زينب » وهى تصغى الى انباء المطاردة العنيفة العنيدة ، حتى اذا بلغها وصول أبيها صلى الله عليه وسلم الى مأمنه فى دار الهجرة ، اطمأن عليه بالها

وجاء رسول من يثرب فصحب أختيها « فاطمة وأم كلثوم » الى يثرب ، وكانت « رقية » قد هاجرت كذلك من قبل ، وبقيت هى دونهن فى دار أبى العاص بمكة، اذ لم يكن النبى قد فرق بينهما بعد

وتلفتت حولها فاذا مكة قد خلت من كل الأهل ، واذا دار أبيها مغلقة خلاء ، اللهم الا من أطياف الاحباب الذين هجروها كارهين

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة ، تسألها : أين من كانوا بالامس يملئونها بهجة وانسا ؟

أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وام كلثوم وفاطمة ؟ وأين القاسم والطيب ؟

رحلوا جميعا ، فاما خديجة وولداها فالى غير مآب ، واما محمد وبناته فالى هجرة واغتراب

والتمست قبر امها فأكبت عليه تروى الثرى بدمعها ، حتى اذا أراحها البكاء هونا اغرقت فى تأمل صامت حزين :

واعجبا .. الاحياء من اهلها واحبابها جد نائين ، والموتى منهم هم الجيران القريبون !

وذكرت سعادتها المدبرة ، فشعرت بقلبها يكاد يتمزق : ان زوجها العزيز لا يزال على دين آبائه ، ولو كان قد أسلم لما تمزق الشمل وانفردت هنا بمكة ، بعيدا عن أبيهـــا واخواتها

▭

وتتابعت النذر معلنة بدنو عاصفة عاتية ، فمحمد صلى الله عليه وسلم قد وجد فى يثرب نصرا ومقاما ، واصحابه يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوى بين مكة والشام ، وقد نجحت جماعة منهم فى الظفر بعير تحمـــل تجارة لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمى ، فعاد المسلمـون الى يثرب بالعـــير وبعض الاسرى ، وتركوا ابن الحضرمى صريعا بسهم على اديم الصحراء

وظل أهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب فى امر هذه القلة المغتربة مع « محمد » بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا بعودة « ضمضم بن عمرو الغفارى » ــ وكان مسافرا فى تجارة الشام مع ابى سفيان ــ فما بلغ مكة حتى وقف على بعيره وحول رحله وشق قميصه وصاح مستنفرا :

ـ يا معشر قريش .. اللطيمة اللطيمـــة ! اموالكم مع ابى سفيان قد عرض لها محمد فى اصحابه لا ارى لكم ان تدركوها .. الغوث الغوث !

فجاءته الاصوات من كل جانب :

ـ أيظن محمد وأصحابه ان تكون عير ابى سفيان كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سمع « زينب » فادركت انها الحرب.. الحرب بين قريش والمسلمين

وفى الأولين زوجها ووالد طفلتها امامة : ابو العاص بن الربيع

وفى الآخرين ابوها : محمد رسول الله !

وباتت ليلتها وليس فيمن تظله سماء مكة اشقى منهـا وافدح هما وقلقا

فلما اصبحت ، وقفت ترقب قريشا وهى تسير فى الف مقاتل كاملى العدة شاكى السلاح لتمنع عيرها

كم ترى يكون عدد الجيش مع ابيها فى يثرب ؟ مائة ؟ مائتان ؟ ثلاثمائة ؟ يالزينب مما تتمخض عنه المعركةالرهيبة غير المتكافئة

وانثنت الى مهد طفلتها « أمامة » فرنت اليها بعـين دامعة وقلب متصدع ، ثم همست بصوت حزين ابح :

ـ لن تطلع علينا الشمس يا ابنتى فى مثل يومنا هذا ، الا واحدانا يتيمة !

ثم أرخت يديها ، وجمد الدمع فى مقلتيها ، واستسلمت لقضاء الله وقدره

ولم تحـاول ان تتتبع انباء القتـال الدائر أو تتلمس ما يصل الى مكة من اخباره ، فأيا ما كانت النتيجة ، فليس أمام « زينب بنت محمد » الا اليتم أو الترمل !

واذ هي منطوية على نفسها تجتر مخاوفها ، جاءتها عمة ابيها « عاتكة بنت عبد المطلب » فابتدرتها قائلة :

ــ أو ما بلغك النبأ العجيب ؟

فنظرت اليها زينب بادية اليأس ، ولم تجب

واستطردت العمة :

ــ انتصر محمد فى قلة من صحابتــه ، على قريش فى كثرتها وعدتها

فانتفضت زينب هاتفة :

ــ انتصر أبى !؟ وافرحتاه !

ثم تذكرت بغتة زوجها أبا العاص ، فضمت طفلتها الى صدرها واستعبرت باكية

لكن العمة عجلت اليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص ، بل وقع فى أسر صهره الكريم

هنالك تعلقت « زينب » بعنق عمتها ، تقبلها بدموع الفرح ، ثم سكنت على صدرها مجهدة تستريح ...

□

واتتها بقية الانباء بعد حين ...

جاءت بها فلول الجيش المهـــزوم الذى ترك هامات

قريش ورءوسها مجندلة صرعى حول ماء بدر ...

واذيعت أسماء الأسرى ، فبعث ذووهم فى الفداء

وكان ابو العاص ذا مال ، وقد اراد اهله ان يغلوا فى فدائه ، لكن « زينب » آثرت أن تفتـديه بما هو أعز من المال !

□

سيق اسرى بدر الى يثرب فى أعقاب الفئة الظافرة ، فتاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم مليا ، ثم نحى عنهم صهره « ابن الربيع » ، وفرق الباقين بين اصحابه وقال :

« استوصوا بالاسارى خيرا »

وبقى ابو العاص عند النبى ، حتى جاءت رسل قريش فى فداء أسراها

وغالوا فى الفداء ، حتى ان المراة لتسأل عن اغلى ما فدى به قرشى ، فيقال لها : اربعة آلاف درهم . فتبعث بمثلها فى فداء ابنها (السيرة ٢/٣١٦)

وتقدم « عمرو بن الربيع » أخو ابى العاص ، فقـال للنبى :

— بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها : اخى ، ابى العاص بن الربيع

وأخرج من ثيابه صرة قدمها الى الرسول ، فاذا فيها « قلادة » لم يكد « محمـــد » يراها حتى رق لها رقة شديدة ، وخفق قلبه للذكرى

لقد كانت قلادة « خديجة » أهدتها الى ابنتها زينب يوم عرسها حين زفتها الى أبى العاص ، ابن اختها « هالة »

واطرق أصحاب الرسول خشعا وقد اخذوا بجلال الموقف وروعته :
قلادة الحبيبة ، تبعثها ابنة النبى الى أبيها ، فى فداء زوج حبيب !!
وتكلم الأب النبى بعد فترة صمت ، فقال فى حنان :
ـ ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها ، فافعلوا
فهتفوا جميعا بملء قلوبهم :
ـ نعم يا رسول الله
وادنى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليه صهره الذى غلبه التأثر لهيبة الموقف ، فأسر اليه حديثا لم يعلم ما هو ، فحنى ابن هالة رأسه موافقا ، ثم حيا ومضى ، فلما ابعد ، التفت الرسول الى اصحابه من حوله ، فأثنى على ابى العاص خيرا وقال :
ـ والله ما ذممناه صهرا !

▭

دخل « ابو العاص » بيته فما رآته زوجته « زينب » حتى وثب قلبها اليه فرحة بنجاته ، ثم لم تسعفها قواها على النهوض لفرط ما هزها الانفعال ، فرفعت وجهها الجميل الى السماء تحمد الله أن رده اليها والى ابنته سالما ، وتضرع اليه تعالى أن يشرح قلبه للاسلام
وشغلتها فرحة اللقاء ، فلم تلمح ما يغشى وجه الحبيب من وجوم واكتئاب ، حتى قال وهو مغمض العينين كأنما يشفق أن يرى وقع كلماته عليها :

ـ جئتك مودعا يا زينب
فصاحت كمن لسعتها نار :
ـ هكذا ولما نكد نلتقى ! ؟
قال وما زال يتحاشى النظر اليها :
ـ لست راحلا يا زينب ، ولكنك الراحلة هذه المرة !
وهالها ما تسمع .
كانت تعرف ان قريشا ارادت اصهار الرسول على ان يردوا بناته اليه ليشغلوه بهن ، وقد استجاب لهم زوجا اختيها «رقية وام كلثوم» فرداهما الى ابيهما ، اما ابوالعاص فتركهم يقولون :
ـ فارق صاحبتك ونحن نزوجك اى امراة من قريش
ثم روعهم بجوابه :
ـ لا والله انى لا افارق صاحبتى ، وما احب ان ئى بامراتى امراة من قريش
فهل تراهم عاودوه اليوم فى امر فراقها فاستجاب لهم بعد الذى كان فى « بدر » ؟
وشعرت ببرودة تجمد اطرافها وتسرى الى قلبها ، بحيث لم تستطع ان تخطو الى فراشها ، فاستندت الى جدار مخدعها مرتعدة ، تنتظر فى استسلام يائس ، ماذا بعد
وادرك « ابو العاص » ما خطر ببالها ، فبادرها قائلا فى حنو وكانما ذاب قلبه فى صوته :
ـ رحماك يا حبيبة ، ان اباك هو الذى طلب ان اردك اليه ، لأن الاسلام فرق بينى وبينك ، وقد وعدت محمدا ان ادعك تسيرين اليه ، وما كنت لأنكث عهدى
وحملها صوته الى بعيد

وتمثلت نفسها فى يثرب ، تقبل اباها وتعانق اخواتها ، وتلقى النازحين من الأهل

وانتشت بالحلم الهنىء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت عيناها على «ابن‌العاص» غارقافى شجنه ، فسالته مترفقة ،

ــ كم بقى لنا من وقت نقضيه معا ؟

اجاب بصوت واهن :

ــ ليس بالكثير . . ان هى الا ايام تتجهزين فيها للسفر ، ثم يكون ألفراق المحتوم

وبقى سؤال لزينب :

ــ وترافقنى الى يثرب ؟

فأمسك دموعا تحيرت فى مقلتيه واجاب :

ــ كلا يا ابنة الخالة ، بل ياتى اخوك زيد بن حارثة ورفيق له من الانصار حتى يبلغا « بطن ياجج » ــ على بعد ثمانية اميال من مكة ــ فينتظرا هناك حتى تمرى بهما فيصحباك الى ابيك بيثرب

وخرجت « زينب » فى الغداة تتجهز للسفر ، فلمحتها « هند بنت عتبة » التى روعها مصابها فى بدر ، واخرجها من بيت زوجها أبى سفيان الى محافل مكة وانديتها تدعو للثأر ممن قتلوا أباها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة ، وابن عمها عبيدة بن سعيد بن العاص بن‌أمية ، وابن زوجها حنظلة بن أبى‌سفيان‌بن‌حرب

ولم يخف على هند ــ فى ذكائها اللماح ــ ان زينب انما تتجهز لتلحق بأبيها ، لكنها أرادت أن تستوثق من الامر ، فدنت منها وقالت متلطفة :

ــ يا بنت محمد ، ألم يبلغنى انك تريدين اللحوق بابيك ؟

فتحيرت « زينب » لا تدرى بماذا تجيب . وأضافت هند مجاملة :

ــ اى ابنة عمى ، ان كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك فان عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى فانه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال

ولمست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة الطاهرة ، المبرأة من الكيد والخبث ، فهمت بأن تفضى الى هند برحيلها القريب ، لولا أن شعرت بما يشبه الخوف ، فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها

ومضت كلتاهما لشأنها

اما زينب فقالت : « والله ما اراها قالت ذلك الا لتفعل ، ولكنى خفتها فانكرت ان أكون اريد اللحوق بيثرب »

واما هند ، فراحت تؤجج فى قريش نار الثأر ، وتغذيها بوقود من الحقد والبغضاء

وسرعان ما حل الموعد المضروب

وودعت « زينب » أبا العاص وداع محبة غير قالية ولا هاجرة ، وخرجت وفى أحشائها بضعة منه : جنين لم يستكمل شهره الرابع

وحاول « أبو العاص » أن يتجلد فقال :

ــ مهما يحدث يا زينب ، فسأبقى على حبك ما حييت ، وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التى شهدت ايامنا الحلوة

ثم خانه تجلده ، فأرخى بصره وترك اخاه « كنانة بن الربيع » يمضي بها الى حيث ينتظر زيد وصاحبه

وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهارا وقد اخذ قوسه وكنانته متأهبا ، فهال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسمع ، وخرج رجال منهم فى أثر المهاجرة حتى ادركوها بذى طوى ، فكان اسبقهم اليها « هبار بن الأسود الأسدى » الذى روعها بالرمح وقد جن حزنه على اخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعا فى بدر بأيدى اصحاب محمد

ونخس البعير ، فألقى براكبته على صخرة هناك ، واذ ذاك برك « كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر :

ـ والله لا يدنو منى رجل الا وضعت فيه سهما

فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا يقول لكنانة :

ـ كف عنا نبلك حتى نكلمك

فكف كنانة

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال :

ـ انك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وان ذلك منا ضعف ووهن . ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى اذا هدأت الاصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها سرا والحقها بأبيها

فكبر على «كنانة» أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن

يذيع فى الناس أن قد ردها قريش ، لولا أن سمع توجعها فالتفت اليها فاذا هى تنزف دما ، وقد طرحت جنينهــا على أديم الصحراء !

وعاد بها الى مكة ، حيث بقى « أبو العاص » الى جانبها اياما يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أو نهار فلما تمالكت بعض قواها ، خرج بها « كنانة » حتى أسلمها الى « زيد ابن حارثة » وما تزال تنزف دما

ولم يتبعها فى هذه المرة طالب ، بل اغمض الذين طاردوها بالأمس اعينهم ، وقد ركبهم الخزى والعار من قول « هند بنت عتبة » تعيرهم وتسخر بهم :

ـ امعركة مع أنثى عزلاء ؟ فهلا كانت هذه الشجاعة فى بذر ؟

افى السلم اعيــارا ، جفاء وغلظــة
وفى الحرب أشباه النساء العوارك ؟

ورجع « كنانة » الى أخيه بعــد أن اطمأن عليهــا وهو يردد بملء صوته :

عجبت لهبـــــــار واوباش قومه
يريدون اخفارى ببنت محمــــــد !
ولست أبالى ، ما حييت ، عديدهم
وما أستجمعت قبضا يدى بالمهند !

□

استقبلت « يثرب » بنت الرسول باحتفـــال مهيب ، شابت فرحة اللقاء فيه ، سورة الغضب لما أصاب العقيلة

الكريمة أول خروجها من مكة ، وحملت الركبان الى قريش قول شاعر الانصار منذرا متوعدا :

اتانى الذى لا يقـــدر الناس قدره
لزينب فيهم من عقـــوق ومأثم

فاقسمت لا تنفـــك منا كتائب
سراة خميس فى لهـــام مسوم

نزوع قريش الكفر حتى نعلهـــا
بخاطمـــة فوق الأنوف بميسم

ننزلهم اكنـــاف نجـــد ونخله
وان يتهموا بالخيل والرجـل نتهم

يد الدهر حتى لا يعـــوج سربنا
ونلحقهـــم آثار عاد وجـــرهم

فابلغ « أبا سفيان » اما لقيتـــه
لئن انت لم تخلص سجودا وتسلم

فابشر بخزى فى الحياة معجـــل
وسربال قار خالداً فى جهنـــم !

(السيرة ٢/٣١٠)

كذلك تحدثت الركبان بغضب الأب الرسول لابنتـــه ، حتى لقد امر أصحابه أن يحرقوا الرجلين الأثيمين ــ هبارا وزميله ــ بالنار اذا هم ظفروا بهما ، لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكد يخلو الى نفسه ويتـــدبر ما كان من أمره باحراق الرجلين ، حتى راى انه جاوز فيهما ما يجب لمثله من حدود العقاب ، فلما تنفس الصبح بعث الى أصحابه مسترجعا ما سبق من امره ، ومستبدلا بالاحراق عقوبة القتل

حدث أبو هريرة قال :

« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية انا فيها ، فقال لنا : ان ظفرتم بهبار بن الاسود او الرجل الآخر الذى سبق معه الى زينب ـ سماه ابن اسحاق فقال : هو نافع بن قيس ـ فحرقوهما بالنار

« فلما كان الغد بعث الينا فقال: انيكنت امرتكم بتحريق هذين الرجلين ان اخذتموهما ، ثم رايت انه لا ينبغى لأحد ان يعذب بالنار الا الله ، فان ظفرتم بهما فاقتلوهما »

▭

ومضت سنوات ست ، حافلة بجليل الاحداث ، و « زينب » فى حمى أبيها بالمدينة تعيش على امل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو ان يشرح الله صدر « ابى العاص » للاسلام

وليس بمستغرب الا نسمع عنهما خبرا فى هاتيك السنين، والا نلمح للسيدة زينب اثرا فيما كان بين نساء أبيها صلى الله عليه وسلم من مظاهر الغيرة والتنافس ، والا نعرف لأبى العاص بعد موقعة بدر ، مشاركة فى تلك الحرب الطاحنة التى لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين فى يثرب والمشركين فى مكة

حتى كانت ليلة من ليالى جمادى الاولى من السنة السادسة للهجرة ، وقد باتت « زينب » مؤرقة تسامر ذكريات المت بها فذادت النوم عن عينيها . وطاب لها أن تحلم فى يقظتها بالغد الذى طال انتظارها اياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ، وقد دخل فى دين محمد

الوف والوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ، وبدا أن النصر الاكبر آت دون ريب ، فهل يسلم « أبو العاص » ؟

ودنا الفجر وما تزال فى يقظتها الحالمة ، فلم تكد تشعر ببابها وهو يفتح فى تردد وحذر ، ثم يبدو منه فجأة « أبو العاص بن الربيع » وقد شحب وجهه وبان عليه القلق

وارتابت « زينب » فى يقظتها وظنت أن ما ترى ليس الا طيف من تحب ، يسرى اليها فى هدأة الليل ، ليذكرها بما لم تنس من ماض لهما سعيد ، ولى وراح

وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبد لها من قبل على كثرة ما ألم بها ، وغمغمت فى شجو ورقة :

ــ أبو العاص !

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

ــ أجل يا أعز من لى ... أبو العاص ، ألقت به المقادير قريبا من يثرب ، فسعى اليك والمطاردون فى أثره

ولم تصدق « زينب » أذنيها ، بل ظلت ترمقه بنظرة حالمة وهى ما تزال اشبه بمنوامة ، واستمرات أن تبقى هكذا ، سعيدة بلقيا الطيف على غير موعد ، الى أن لمحت نور الفجر الوليد يتسلل من كوى الدار ، وسمعت بلال ابن رباح يؤذن للصلاة بصوته الرخيم ، فتجيبه أصوات المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا دعاء السماء :

« الله أكبر »

وميزت خطوات قريبة ساعية الى المسجد فعرفت انه ابوها يخرج ليصلى بالناس .

وقالت كمن تحدث نفسها :

« رباه ، لكانى فى يقظـــة ، ولكانى بك يا أبا أمامة الى جانبى ! »

فرد عليها صوت من حسبته طيفا :

ـ اجل يا زينب ، وهذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعد ان اجهده السرى ، وارهقته المطاردة ، واضناه الفراق !

فسرت رعدة فى جسدها ، وقامت اليه مسبلة الجفنين فى فتور حالم ، حتى اذا لم يبق بينهـــا وبينه الا خطوة واحدة ، وقفت فجاة كمن تذكرت شيئا فاتها ، ورنت اليه بنظرة متسائلة دون ان يقوى لسانها على كلام

وهز ابن الربيع راسه اسفا وهو يجيب عن ســـؤالها الصامت :

ـ كلا يا زينب ، لم آت يثرب مسلما ، وانما خرجت تاجرا الى الشام فى أموال لى واخرى لرجال من قريش ، فلما فرغت من تجارتى واقبلت قافلا ، لقيتنى سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلا ، فأصابوا كل ما معى واعجزتهم هاربا ، حتى اذا جن الظلام جئتك متخفيا مستجيرا !

(الاصابة ٩١/٨)

فعادت الى مكانها الاول ، وهى تقول بصوت يقطر اسى ويأسا :

ـ مرحبا بابن الخالة ، مرحبا الف مرحب بابى امامة

ولفهما صمت مشحون بالشـــجن ، وغرق الكون من

حولهما فى سكون خاشع ، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت انفاسها لحظة ، ثم تناهى الى سمعها صوت النبى يكبر فى المسجد ، فجمعت زينب نفسها وقامت الى الباب ، ثم صاحت بملء صوتها :

« أيها الناس ، انى أجرت أبا العاص بن الربيع »

وحمل نسيم الفجر صوتها الى من فى المسجد فلما سلم الرسول صلى الله عليه وسلم اقبل على من معه فقال :

« أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ »

أجابوا :

« نعم يا رسول الله »

قال :

« أما والذى نفس محمد بيده ، ماعلمت بشيء من ذلك حتى سمعت ماسمعتم »

وأضاف بعد صمت قصير :

« انه يجير على المسلمين أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت »

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها ، فما كادت تراه حتى هتفت ضارعة :

— يارسول الله ، ان أبا العاص ان قرب فابن عم ، وان بعد فأبو ولد ، وانى قد أجرته

فرنا اليهما الاب الكريم فى عطف وتأثر ، ثم قال يحدث ابنته:

— اى بنية ، اكرمى مثواه ، ولا يخلصن اليك ، فانك لاتحلين له

وتركهما وما يدريان علام استقر رايه فيهما ، فأتبعاه بصريهما حتى اذا بعد ، التفت كل منهما الى صاحبه ، وقالت زينب لائمة :

ـ هان عليك فراقنا ياأبا العاص
فأجابها وهو يمسك قلبه :
ـ معاذ الحب يازينب ، أما والله ماطاب لى من بعدك عيش
فسألته :
ـ ففيم اذن هذا العذاب ؟ وحتام ؟
اجاب :
ـ حتى يقضى الله فينا امره
واخفى وجهه بين راحتيه ، كيلا تلمح زينب دمعة ترنحت فى مقلتيه
همست فى ضعف :
ـ يرحمنا الله ياأبا العاص
فرفع وجهه اليها وقال متمهلا :
ـ لقد عرضوا على بالامس ان اسلم وآخذ مامعى من اموال فانها اموال المشركين ، فأبيت قائلا : بئس ما أبدأ به اسلامى ، أن اخون أمانتى
فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ماوراء كلامه ، لكنه تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بمناجاة طفلته النائمة فى سلام

▭

وفى الصبح ، بعث الرسول من يصحب « أبا العاص » الى المسجد ، حيث كان صلى الله عليه وسلم يجلس فى جمع من صحابته ، بينهم رجال السرية الذين أصابوا مال ابى العاص
وقال لهم الرسول :

ـ ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فانا نحب ذلك ، وان أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فانتم أحق به

فأجابوا بصوت واحد :

ـ يارسول الله ، بل نرده عليه

وأسرعوا يفعلون ، حتى أن أحدهم ليأتى بالدلو ، وبالاناء الصغير ، وبالسقاء البالى ، الى أن ردوا عليه ماله بأسره ، لم يفقد منه شيئا

وحان موعد رحيله ، فقال الرسول وهو يودعه :

ـ حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى له

والتفت ابو العاص الى دار زينب مودعا من بعيد ، ثم مضى وقد اعتزم أمرا !

□

مضى حتى بلغ مكة ، وفرحت قريش اذ راته يعود بتجارتها رابحة ، وبأموالها مثمرة لم تمس ، وأقبلت عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الاعداء فى يثرب ، لكنه استمهل القوم حتى أدى الى كل ذى مال منهم ماله ، ثم وقف بحيث يسمع وصاح بأعلى صوته :

ـ يامعشر قريش ، هل بقى لاحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟

أجابوا :

ـ لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما !

فأدار فيهم بصره ، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما يقول :

ـ فأنا اشهد ان لا إله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

والله مامنعنى من الاسلام الا تخوف أن تظنوا انى انما اردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله اليكم وفرغت منها ، اسلمت»
ــ السيرة ٢/٣١٣

وخلف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة ،وانطلق مستقبلا يثرب

□

هل هلال المحرم من سنة سبع ، وقد عاد الرسول وصحبه من الحديبية ــ على بعد مرحلة من مكة ــ بعد أن عقدوا الصلح التاريخى الذى بدا كأنه المحاولة الاخيرة لمشركى مكة ، قبل المعركة الحاسمة الفاصلة

وتناقل الناس هنا وهناك ، حديث الرسول يوم حالت قريش بينه وبين ما اراد من دخول مكة ليحج الى البيت العتيق مسالما لايريد قتالا :

« ياويح قريش ! لقد اكلتهم الحرب .. ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لاأزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ! » وأشار الى صفحة عنقه

وصدق رسول الله : ياويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ومايزالون على عنادهم وكفرهم ، وانهم لعلى يقين أنهامعركة خاسرة ، لكنهم مع يقينهم ذاك ، يأبون الا أن يلقوا بفلذات اكبادهم وقودا لنار الحرب ..

وفى قريش أهل وعشيرة ، وفى مكة للمسلمين المهاجرين

وطن ورحم وقربى ، وان يثرب لتفتح قلبها قبل ذراعيها لكل من يفد اليها من هؤلاء مسلما ، وتوطىء له فى رحابها منزلا وسكنا

وهاهى ذى تستقبل مع هلال المحرم « أبا العاص بن الربيع » وقد أتى من تلقاء نفسه مسلما ، فتتفاءل بمقدمه الذى اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة نبى الاسلام

وقد توجه « أبو العاص » فور مقدمه ، الى مسجد الرسول ، مارا فى طريقه ببيت زينب ، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم حفوا به مهنئين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر اهمه : اترى الرسول يرد اليه « زينب » بعد الذى كان ؟

وساوره القلق ، ثم ذكر أن الاسلام يجب ماقبله ، فجمع شجاعته وتقدم الى الرسول بحاجته فى استرجاع زينب

واثنى الرسول عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاةوالسلام ، وسار الى بيته ومعه ابن الربيع

ودعا اليه ابنته ، فردها على أبى العاص ، واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال مداه حتى استنفد الصبر وغلب التجمل وافنى الاحتمال

□

ومضى عام واحد ..

عام واحد فحسب ، ثم كان الفراق الذى لالقاء بعده فى هذه الدنيا

ماتت « زينب » فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة ، متأثرة بعلتها التى لزمتها منذ طرحت جنينها على أديم الصحراء وهى خارجة من مكة

وريع « أبو العاص » للمصاب الفادح ، فأكب على الحبيبة يناجيها ويتشبث بها حتى أبكى من حوله ، ولم يجرؤ أحد منهم على ابعاده عن فراش الراقدة ، حتى جاء أبوها محزونا فاستودعها الله ، ثم قال للنساء :

ـ أغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا ، واجعلن فى الآخرة كافورا

هنالك غادر « أبوالعاص » مخدع الغالية بخطوات مترنحة، ووقف بالباب ملتاعا شارد النظرات ، الى ان جهزوها للرحلة التى لايئوب منها مسافر

وصلى عليها أبوها الرسول فى مسجده ، ثم شيعها الى مرقدها حيث اودعوها ثرى يثرب وهالوا عليها الرمال

ورجع « أبوالعاص » الى داره التى كانت بالامس جنة الحب، فأمست بعد رحيل « زينب » منزل الذكريات والاشجان

وكاد الحزن يهلكه ، لولا ان وجد فى ابنته « امامة » صورة حية من الراحلة ، تؤنس وحشته ، وتأسو جراحه ، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب

وكذلك وجد الرسول فى « امامة » مايخفف حزنه على « زينب » ، فكان يأنس بها ويهش لها ، وقد يحملها على عاتقه ويصلى بها ، فاذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها

وحدثت السيدة عائشة ان الرسول صلى الله عليه وسلم أهديت اليه هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : لادفعنها الى أحب أهلى الى . فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة ! لكن رسول الله دعا امامة بنت زينب ، فأعلقها فى عنقها

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذى يوصف ، فلقد راحت تبكى فيها امهاوشقيقتها وصديقتهاوصاحبتها ، وتذكر ايامهما السعيدة فى مكة اذ البال خلى وشمل الاسرة ملتئم ، ثم كان لها بعض عزاء فى تسمية وليدتها باسم « زينب » احياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها الحبيب الذى لايمل

ولم يتزوج أبو العاص بن الربيع ـ فيما قرانا ـ حتى لحق بزينب ، أيام أبى بكر ، فى ذى الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة

واوصى بابنته امامة الى « الزبير » ابن خاله العوام بن خويلد بن أسد . وقد زوجها الزبير من على بن ابى طالب بعد وفاة خالتها الزهراء ، وظلت معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهى تطيف به اذ هو مسجى على فراشه ، يمزق القلوب ويفتت الاكباد

قالت « أم الهيثم النخعية » :

اشـــاب ذؤابتى واذل ركبى
« أمامة » حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتهـــا اليـــه
فلمـــا استيأست رفعت رهينا

وكان الامام الشهيد قد قال لأمامة حين حضرته الوفاة « انى لاآمن ان يخطبك هذا الطاغية ـ يعنى معاوية ـ بعد موتى ، فان كان لك فى الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيرا »

فلما انقضت عدتها ، كتب معاوية الى مروان بن الحكم يامره أن يخطبها عليه ، وبذل لها مائة الف دينار . فلما ذكرت ذلك للمغيرة المطلبى الهاشمى ، قال مغضبا :

ـ اتتزوجين ابن آكلة الاكباد ؟ فلو جعلت امرك الى ؟

اجابت وقد ذكرت وصية زوجها الامام الراحل :

ـ نعم

فقال المغيرة :

ـ قد تزوجتك

واقامت معه حتى ماتت ، عن غير خلف ، وان قيل فى رواية انها ولدت لعلى ابنه يحيى

وبموتها انقطع عقب « زينب الكبرى » وبقيت قصتها المثيرة ملء سمع الزمان

رقية

ذات الهجرتين

الخطيبتان ــ ظلال على الأفق ــ فى بيت أبى لهب ــ مع حمالة الحطب ــ النجاة ــ زواج جديد ــ الهجرة الاولى ــ الهجرة الثانيـة ــ ماتم فى يوم النصر ! ــ الثرى الطهور !

لم يكن قد مضى على زواج « زينب » من ابى العاص بن الربيع غير وقت قصير ، حين استقبل البيت المحمدى وفدا من آل عبد المطلب ، جاءوا يلتمسون مصاهرة ابن‌عمهم الامين ، وقد خافوا ان يسبقهم اليه كفء كريم من شباب قريش

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم ، على مالوف عادتهما من الملازمة ، حين وفد القوم ، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا :

ــ ما أرى دورك الا قد حان يارقية

وقبل أن تهم رقية بجواب ، اقبلت « فاطمة » تقول ردا على ماسمعت من كلام أختها :

ــ بل جاء دوركما معا !..

ذلك أنها كانت تنعم بملاعبة ابيها حين جاء الضيوف ، فلم تشأ أن تفارقه ، بل انتظرت وفى حسابها انهم قد ينصرفون علي عجل ، فتستأنف ماكانت تحظى به من صحبة ابيها

واتيح لها بذاك ان تسمع قول شيخهم ابى طالب :

ــ انك يا ابن العم قد زوجت زينب لابى العاص بن‌الربيع، وانه لنعم الصهر ، غير ان بنى عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن اخت خديجة ، وليسوا دونه شرفا ونسبا

اجاب محمد :

ــ صدقت ياعم

واستطرد الشيخ يقول :

ــ وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وام كلثوم ، وما اراك تضن بهما على ابنى عمك

قال محمد :

ــ معاذ القرابة والرحم ، ولكن هلا امهلتنى ياعم حتى اتحدث فى هذا الى ابنتى ؟

ولم تنتظر « فاطمة » لتسمع أكثر من هذا ، بل اسرعت تعدو الى أختيها فى بهو الدار وأسرت اليهما بالنبأ الخطير

ووجمت الاختان لما سمعتا ، فقد كان الامر كله مفاجاة غير متوقعة ، ومن ثم تعطلت مشاعرهما واستغرقهما جمود صامت ، ثم راحت كل منهما تنظر الى الاخرى ، وكأنهـا تستنجد بها أو تحاول أن تستبين موقفها ، لكن بصريهما ارتدا اليهما بغير جواب

هنالك التفتتا معا الى « فاطمة » وقالتا بصوت واحد :

ــ فهل عرفت لاى ابناء العم يسعى جدنا الشيخ ؟

اجابت الصغيرة :

ــ كلا ، فما أطقت صبرا بعد ان سمعت حديث الجد ، وبادرت اليكم بالنبأ دون انتظار لما وراءه

وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصوت خفيض ، وكأنها تحدث نفسها :

ــ وماذا يعنينى من اسم الخاطبين ؟ فليكونا من يكونان ، فلن يتغير الموقف فى كثير أو قليل ، وعما قريب يتكرر المشهد القاسى ، وتنتزع رقية وام كلثوم من بيتنا كما انتزعت أخت

لهما من قبل ، وتنقلان الى دار اخرى غير هذه الدار ، وابقى هنا وحدى ، بغير أخت !

واغرورقت عيناها بالدموع ، حين أقبلت امها تلتمس اختيها ، ولم يفت الام فى اشتغالها بالامر المهم ، ان صغيرتها فاطمة تبكى ، فانعطفت اليها تسالها فى حنان :

ــ مايبكيك ياصغيرتى ؟

اجابت وهى تتشبث بها معانقة :

ــ لاتدعى احدا ينتزعنى منك ومن ابى ، فلست اطيق فراقكما

فتبسمت « خديجة » ضاحكة من قولها ، واجابتها :

ــ كلا ، لن تتركينا ياحلوة ، حتى تريدى انت !

فصاحت « فاطمة » بملء سذاجتها :

ــ لكنى لن أريد !

وعقبت الام هامسة فى رقة وشجو :

ــ كذلك تقولين الآن ياصغيرتى ، وكذلك كنا نقول من قبل

واسبلت جفنيها حالمة ، وارتدت بها الذكرى الى اربعة عشر عاما مضت ، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت يديها من الرجال وصممت على الا تتزوج ، حتى لقيت محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم اليها خاطبا ، بل كانت هى التى سعت اليه ، غير مكترثة بما قد يقول الناس ، ولا ملقية بالا الى مايحتمل ان يلقاها به المجتمع القرشى ، حين يبلغه نبأ سعيها للزواج من شاب فقير ، وهى التى ردت خاطبيها من سراة قريش وكبار رجالها . وهذه هى تقف بعد اربعة عشر عاما من زواجها بمحمد ، لتبارك اليوم السعيد الذى

لقيته فيه ، وتستعيد ذكراه الحلوة ، فتشعر بدفء الحب يذود عنها برودة الشتاء وهى تدنو حثيثا من عامها الخامس والخمسين !

وآبت من حلمها الهنىء الذى ماتزال فى نشوة منه ، فاذا صغيرتها « فاطمة » تبادرها سائلة :

ـ من يكون الخاطبان ياأم ؟

اجابت فى ايجاز وهى ترنو الى رقية وام كلثوم ، وقد وقفتا غير بعيد تصغيان :

ـ عتبة وعتيبة ، ابنا العم ابى لهب !

واطالت النظر الى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ، لكنهما انسحبتا الى غرفتهما فى سكون ، دون ان تنبسا ببنت شفة

وتبعتهما فاطمة

وبقيت الام وحدها وقد شعرت بانقباض لا تدرى سببه فعللته بقرب فراقها لابنتيها ، على انها ما لبثت بعد فترة تأمل ، ان عرفت فيم انقباضها . لقد كانت لا تستريح الى « ام جميل بنت حرب » زوجة ابى لهب وام ولديه ، ففيها شىء من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان .. وفيها كذلك صلف احمق وطيش اهوج ينأيان بها عما يجب لمثلها من اتزان ووقار ، ويفقدانها ذلك السمت الجليل الذى يغلب على السيدات القرشيات ، وقد اشفقت « السيدة خديجة » على ابنتيها من معاشرة هذه المرأة ، فما لهما بها قبل وما تزالان صغيرتين غريرتين ، ولو ان الامر بيديها لحالت دون اتمام هذا الزواج المقترح ، لكنها تخشى ان هى

فعلت ، ان تثير ثائرة الهاشميين عليها ، وتتعرض لاتهامهم اياها بأنها تحاول ان تمزق ما بين محمد وآله من اواصر القربى

والسيدة خديجة الى جانب هذا ، تعرف لام جميل انتماءها الى بيت قرشي كبير ، ولن تسكت على مهانةالرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وانها لقادرة على ان تفعل ، وحسبها ان تتناولها بلسانها السليط وتنطلق فى المجتمع القرشي متحدثة بما شاءت وشاء لها حقدها من مفتريات

وكانت السيدة خديجة بحيث تفضى الىزوجهابمخاوفها، فما اعتادت قط ان تخفى عنه شيئا مما يهجس به خاطرها او يجول فى سريرتها ، لكنها كرهت ان تشغل محمدا بهذه الهواجس ، وهى تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفا عن شواغل الدنيا ، وانها لتدرك بفطنتها وقوة حبها لمحمد ، ان ثمت امرا خطيرا يشغله ، وان لم تدر كنه هذا الامر ، ولا هى بحيث تحمله على الافضاء به اليها قبل ان يفعل ذلك هو من تلقاء نفسه ، وانما حسبها ان توفر له ما يحتاج اليه من هدوء وسلام ، وان تحوم حوله من غيران تثقل عليه، وترمقه فى وحدته بعين ساهرة ، دون ان تقتحم عليه هذه الوحدة

وما كان لها وهى الحريصة على طمانينته ان تعكر هدوءه بمخاوفها من ام جميل بنت حرب ، او تشغله بالصراع بين حرصه على هناءة ابنتيه ، وبين بره بقومه واحترامه لاعمامه واعتزازه بعشيرته الهاشميين ، او تعرضه ــ وهو فى حالته تلك ــ لعداوة ابى لهب وبغضاء امراته

وفى الغرفة القريبة ، كانت الفتاتان مطرقتين ساهمتين ، واختهما الصغرى ترقبهما فى حيرة : ان الامر اليوم ليختلف عما شاهدت من « زينب » فلقد كانت بادية البشر والاشراق تستعد للفرح فى غبطة وعلى استحياء ، اما رقية وام كلثوم فتبدوان أقرب الى الاكتئاب والقلق . ولم تستطع طفولة فاطمة ان تميز بين زواج قام على المودة والتعارف والالفة ، وآخر تعقده مصالح الاسرة وروابط الدم لا غير

ولم تتبادل الاختان حديثا عن حياتهما المقبلة ، لكن افكارهما كانت تدور بلا ريب فى مدار واحد : ما بال الاسرة تتعجل زواجهما ، هلا اتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال الى دار ابى لهب ؟

وفى الحق انهما ما انكرتا من امرعتبة وعتيبة شيئا واضحا محددا ، فهما بعد من فتية آل هاشم الامجاد ، ولهما كذلك فى بنى عبد شمس عز الخؤلة وصراحة النسب القرشى الكريم ، اما العم ابو لهب ، فله — الى جانب حسبه وثرائه — مكرمة سابقة هيهات ان يجحدها آل محمد ، فانه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن اخيه عبد الله ، حتى اعتق جاريته ثويبة التى حملت اليه البشرى السعيدة

وما غاب شىء من هذا عن بال رقية وام كلثوم ، لكنهما رغم ذلك تجفلان من فكرة الانتقال الى بيت العم ، ايكون هذا لانهما لم تألفا بعد الوضع الجديد ، ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه ؟ ام لعلهما تكرهان ان تستبدلا بالعيش مع امهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور ، عشرة « أم جميل » ذات السمت السوقى والطبع الجامح الحاد ؟ او من يدرى ، لعلهما احستا بهدى الفطرة ، فطرة حواء التى

قلما تخطىء فى مثل هذا ، ان لام جميل على ولديها من السلطان ما يجرح عزة رجولتهما ، ان لم يلغ شخصيتهما الغاء

وقالت ام كلثوم لرقية :

ـ انك لتعلمين ان ابانا لن يقضى هذا الامر دوننا ، فماذا تزينك فاعلة ؟

فشحب وجه رقية وهى تجيب :

ـ لست بالتى تعق آباها ، فتعرضه للحرج امام اهله وعشيرته الادنين

ثم رنت الى اختها وقالت تشجعها فى رقة وعطف :

ـ لا عليك يا اختاه ، فسنكون معا

وكذلك تم الامر فى هدوء مشوب بالقلق ، وبارك محمد ابنتيه ثم تركهما فى حراسة الله ورعايته ، وانصرف الى ما كان يشغله من تعبد وتأمل

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير فى زوجها الحبيب ، وقد ازداد ميلا الى الوحدة واغراقا فى التأمل ونزوعا الى الصمت ، وبدا كأنه نفض يديه من شواغل الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل الذى يكتمه حتى عن خديجة ، موضع حبه وثقته وسكنه

ليته يدعها تشاركه الهم وتحمل معه العبء الذى تحسه ثقيلا باهظا ! ليته يرحمها مما تعانيه من قلق ووحشة ، فيفضى اليها بالذى يشغل باله

وفجاة ، لاح لها فى هداة الليل قبس من نور اضاء الظلمة

التى اغرقت الكون من حولها ، وتناهى الى مسمعها فى ذلك الصمت العميق ، صدى من قول « ورقة » ابن عمها نوفل :

لجحت وكنت فى الذكرى لجوجا
لهم طالمـــا بعث النشـــيجا
ووصف من خديجة بعد وصف
فقـــد طال انتظارى يا خـــديجا
ببطن المـــكتين على رجـــائى
حديثـــك أن ارى منه خروجا !

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهاجع ، فاغمضت خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد ان الح عليها السهاد

ومضت ايام وليال ، كثر فيها خروج محمد الى غار حراء وقلب خديجة يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وان بقيت بجسمها فى البيت ، تعد له زاده ، وتبعث وراءه من يحرسه ويأتيها بأنبائه ، وترصد مطلع النور المرتقب

وقد تذكر ابنتيها رقية وام كلثوم ، فيرق قلبها رحمـة لهما واشفاقا عليهما مما قد تلقيان فى عشرة « أم جميل » لكنها لا تلبث ان تنسى همها ذاك فيما يملأ دنياها من طلائع الامر الجليل المرتقب

□

ولم يكذب السيدة خديجة ظنها

فما كاد محمد صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه ويدعو الى الدين الجديد ، حتى اخرجت « رقية وام كلثوم » من بيت ابى لهب ، وردتا الى بيت ابيهما

وكانت قريش قد ائتمرت بالرسول فى بناته قائلة :

ـ انكم قد فرغتم محمدا من همه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن

ومشوا الى اصهار الرسول الثلاثة ، فقالوا لهم واحدا بعد الآخر :

ـ فارق صاحبتك ونحن نزوجك اى امراة من قريش شئت

فاما « ابو العاص » فابى مؤثرا صاحبته على نساء قريش جميعا ، واما ابنا ابى لهب فاستجابا على الفور ، واختار عتبة زوجة من آل سعيد بن العاص ، بدلا من « رقية بنت محمد »

وفى الحق ، ان ابنى ابى لهب لم يكونا بحاجة الى سعى قريش فى طلاق العروسين ، فلقد تكفلت به « ام جميل بنت حرب » من قبل ، حين اقسمت الا يظلها وبنتى محمد سقف ، ثم مازالت بزوجها ابى لهب حتى اثارت حفيظته على البنتين البريئتين ، فقال لولديه :

ـ راسى من راسيكما حرام ان لم تطلقا ابنتى محمد .

وكان الظن بابنى العم الا يفعلا

بل كان الظن بالعم الا يقف هـذا الموقف من حفيدتى اخيه عبدالله ، وابنتى محمـد الذى ابتهج بمولده واعتق جاريته حين بشرته به

لكن ام جميل كانت وراءه ، تسوقه امامها مسـلوب النخوة مضيع المروءة فاقد الارادة ، وتسمم الدم الهاشمى الذى يجرى فى عروقه ، وتنسيه ماتوجبه عليه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ

لكانما ارادت هذه العبشمية ان تكيد لبنى هاشم ، الذين

استأثروا بأكثر المجـــد والسلطان دون قومها بنى عبـد شمس ، فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق اواصرهم وتضرب بعضهم ببعض

او كأنما أرادت هذه المراة الحقود ، ان تشفى غليلها من « خـديجة بنت خويلد » التى كانت ملء العيون مهـابة وجلالا ، ملء الآذان عفة وطهرا ، فراحت تؤجج غضب القوم على محمد ، لتغيظ غريمتها خديجة وتفسد عليهـا سعادتها التى كانت مضرب الأمثال .

ولم يكفها ان ردت اليها ابنتيها طالقين ، بل خـرجت ومعها زوجها ابو لهب الى صميم المعركة بين محمد وقريش ، فما رؤى احد اشد عداوة منهما لنبى الله ، ولا بلغ أحد من اذاه قدر ما بلغا ، ولا سمع ان احدا من بنى هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم ، كما فعل ابو لهب !

وانه لموقف يدعو حقا الى الدهشة والعجب

وليس مثار الدهشة أن أبا لهب لم يسلم ، فكذلك بقى أكثر الهاشميين على دين آبائهم زمنا طال أو قصر ، لكنهم مع ذلك أبوا ان يخذلوا ابن عبدالله او يسلموه

اقبل حمزة بن عبد المطلب ـ اخو ابى لهب ـ ذات يوم متوشحا قوسه عائدا من رحلة صيد ، فلقيته امراة تقول :

« يا ابا عمارة ، اورايت مالقى ابن اخيك محمد آنفا من ابى الحكم بن هشام ؟ وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره . »

فاحتمل حمزة الغضب ـ ولم يكن قد اسلم بعـد ـ واندفع غير ملق بالا الى أحـد فى الطريق ، حتى عثر بأبى الحكم جالسا فى القوم بالبيت العتيق ، فأقبل نحوه

حتى اذا قام على راسه ، رفع القوس فشجه به شجة منكرة ثم قال :

« اتشتمه وانا على دينه أقول مايقول ؟ فرد ذلك على ان استطعت ! »

وهكذا اسلم حمزة ، لأنه لم يطق ان يؤذى ابن اخيه بمراى منه او مسمع !

وكذلك لم يطق احد من بنى هاشم ان يخذل محمدا ، سواء فى ذلك الذين اسلموا منهم والذين لم يسلموا ، غير ابى لهب !

نقل السهيلى رواية عن ابن عباس :

« لما انزل الله تعالى : وانذر عشيرتك الاقربين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الصفا فصعد عليه وهتف : واصباحاه ! فلما اجتمعوا اليه قال : ارايتم لو اخبرتكم ان خيلا تخرج من سفح هذا الجبل ، اكنتم مصدقى ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : « فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فانبرى له ابو لهب قائلا : « تبا لك ، الهذا جمعتنا ؟ » فانزل الله تعالى :

« تبت يدا ابى لهب وتب ــ ما اغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب ــ فى جيدها حبل من مسد »

ذلك لانها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر

قال ابن اسحاق :

« فذكر لى ان ام جميل حمالة الحطب ، حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، اتت رسول الله صلى

الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه ابو بكر الصديق ، وفى يدها فهر من حجارة ـ قطعة تملأ الكف ـ فلما وقفت عليهما اخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى الا ابا بكر ، فقالت : يا ابا بكر ، اين صاحبك ، فقد بلغنى انه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . اما والله انى لشاعرة . ثم قالت :

مذممـــــا عصينـــــا
وامر ابينـــــــــا
ودينـــــــه قلينـــا

وانصرفت ، فقال ابو بكر : يا رسول الله ، اما تراها راتك ؟ فقال : ما راتنى ، لقد اخذ الله ببصرها عنى . »

□

وربما إستيقظ ضمير ابى لهب مرة ، وغلا فى عروقه الدم الذى يحن الى ابن الاخ ، فثار مغضبا لما يرى من جور قريش على بنى هاشم . حدثوا ان ابا سلمة المخزومى ابن برة بنت عبد المطلب ، استجار بخاله ابى طالب ، حين ارادت قريش ان تفتنه عن اسلامه ، فمشى رجال من بنى مخزوم الى ابى طالب فقالوا له :

ـ لقد منعت منا ابن اخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : انه استجار بى وهو ابن اختى ، فان انا لم امنع ابن اختى لم امنع ابن اخى

وكان ابو لهب حاضرا ، فقال مغضبا : يا معشر قريش ،

والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ! ما تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه او لنقومن معه فى كل ماقام فيه حتى يبلغ ما اراد

فآثروا ان يبقوا على نصره لهم وقالوا :

« بل ننصرف عما تكره يا ابا عتبة » السيرة ٢/١٠

لكنها مرةواحدةيتيمة ، لم يذكر الرواةان«ابا لهب »وقف مثلها اخرى ، بل ظل على مظاهرته اعداء قومه حتى مات

واعشى سحر « أم جميل » عينيه فلم يعد يبصر ، وقذف به وراء هاشميته ورجولته ، بل وراء الانسانية جميعا

حدثوا ان بنى هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق الحصار فى شعب ابى طالب ، كانوا اذا قدمت العير مكة واتى احدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام لعياله ، يقوم ابو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على اصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن الا خسار عليكم

فيزيدون عليهم فىالسلعة قيمتها اضعافا ، حتى يرجع المسلم او الهاشمى الى اطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يديه شىء يطعمهم به . ويغدو التجار على ابى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المسلمون ومن معهم من بنى هاشم جوعا وعريا

▭

وادع الخبر بغير تعليق ، وادع معه ذلك الاستطراد الطويل الذى مضيت فيه بالرغم منى ، مستثارة بما قرات عن ابى لهب وانا التمس اخبار ابنتى محمد ، فى

زواجهما الخائب بابنى ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتهما الى ابويهما ، شفاء لحقد حماتهما أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب

وبين هاتيك السطور التى نقلتها ، اقرأ مالم يكتب عن معاملة هذه العبشمية لابنتي محمد ، اذا صحت الرواية القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالهما الى بيت ابى لهب ، وليس قبل الدخول بهما كما تقول رواية اخرى« الاصابة٨/٣٨ »

واكاد ألمحهما وراء هذا كله ، فى تجربتهما القاسية المرة ، حين غادرتا بيتهما الاول الذى تظله اجنحة الحب والسلام، الى بيت كهذا حيث تتلقاهما ــ وهما فى جلوة العرس ــ امرأة سليطة ركبها الشيطان ، فتلقى عليهما ظلها الثقيل صباح مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى فى سمتهما النبيل وملامحهما اللطيفة ، من مخايل السيدة « خديجة بنت خويلد » موضع غيرتها وحسدها

فاذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ، اساءت الظن بوداعتهما فحملتها محمل الازدراء والترفع ، وازدادت لذلك شراسة وغلظة وجفاء

ولم تفكر احداهما فى الشكوى لابويهما ، فقد كانتا أبر بهما من ان تروعهما بالحديث عن افاعيل « ام جميل »

وكان الظن ان تجد كل منهما فى اختها متنفسا لكربها وموضعا لشكاتها ، لولا ان « ام جميل » كانت هنالك دائما ، تقف لهما بالمرصاد ، وتابى ما وسعها الجهد ان تخلو الاخت باختها ، ولو استطاعت لاقامت بينهما سدا

وهكذا احتملت ابنتـــا محمـــد فى صمت وصـــبر ، حتى اراحهما الله من ذاك الكرب ، ونجاهما من كيد حمالة الحطب وعيشتها الغبراء !

▭

على ان الحياة فى بيت ابيهما ــ صلى الله عليه وسلم ــ كانت قد تغيرت عما الفتا فى امسهما السعيد ، فولى عنها ما كانت تنعم به من راحة وهدوء

اولم يقل الرسول لزوجته : « مضى عهد النوم يا خديجة ! »

بلى ، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب فى سبيل الله ، وان النبى ليعود الى بيته كلما خرج ، محزونا لما يجد من عنت قومه وصدهم عن سبيل الله ، فما تزال السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقى ، حتى يزول ما به من حزن

ومع كل هذا العذاب ، طاب لرقية وام كلثوم ان تشاطرا ابويهما ما يلقيان فى سبيل الله ، وارتاحت نفساهما لاحتمال كل صنوف الاذى ، واستعذبتا الالم والتضحية فى تلك المعركة المقدسة

وخاب ظن حمالة الحطب وظن المشركين من قريش ، فلم يشغل « محمد » ــ صلى الله عليه وسلم ــ بابنتيه عن دعوته ، ولم يشق عليه رجوعهما الى بيته ، فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابنى حمالة الحطب ، ثم ما لبث ان ابدلهما خيرا منهما : زوجا صالحا كريما ، من النفر الثمانية الذين سبقوا الى الاسلام ، واحد العشرة المشهود لهم بالجنة ذلك هو « عثمان بن عفان بن ابى العاص بن امية بن عبد شمس »

اعزه الله فى الجاهلية فكان من اعرق فتيان قريش نسبا ، يلتقى مع الرسول الكريم من جهة الاب عند عبد مناف بن قصى ، ومن ناحية الام عند عبد المطلب بن هاشم ، فجدة عثمان لامه ، هى البيضاء ام حكيم بنت عبد المطلب جدالنبى

وكان الى هذا النسب العريق ، بهى الطلعة ، فخمالسمت موفور المال ، رضى الخلق

ثم اعزه الله فى الاسلام فكان من السابقين الاولين

تقدم « عثمان » الى رسول الله يسأله شرف المصاهرة ، فزوجه صلى الله عليه وسلم ابنته « رقية » ، ولم ير زوجان قط اجمل منهما ولا ابهى

ولم تشارك «مكة » هذه المرة فى الاحتفال بالعرس البهى ، بل باتت قريش بغيظها مسهدة تفكر فى هذا الخصم العنيد الذى يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا ، ويتحدى فى قلة عزلاء من صحابته ، قبائل قريش مجتمعة ، وفيها الجاه والكثرة والباس !

وعجبت لهؤلاء النفر الدين اتبعوه ، يؤثرونه علىانفسهم واهليهم واموالهم ، ولا يترددون فى افتدائه بالمهج والارواح ، بل يرون الاستشهاد معه او فى سبيله مجدا وانتصارا

من هؤلاء ، من كان بالامس له عدوا ، ومنهم من تردد امدا قبل انيؤمن برسالته ، ولكنهمجميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حوله يبدلون له الحب محضا خالصا على نحو لا تعرف الدنيا له مثيلا

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة

التعذيب فى مستهل المبعث ، فقد « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشـتد الحر » حتى يفتنوهم عن دينهم ، فيؤثر احدهم أن يموت على أن يرتد الى دين الكثرة الغالبة !

وطال ليل قريش وهى تذكر « عثمان بن عفان » الذى رضى ان يبيع اهله وعشيرته ودنياه فى سبيل رضى محمد وربه ، وانه ليعلم ما يلقى اصحاب « محمد » من اذى ، ويقدر انه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بالنبذ من المجتمع القرشى الذى احله مكانا مرموقا

□

ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب ، لرأت فتى امية : « عثمان بن عفان » يهاجر من مكة ، موطن آبائه ومهـد طفولته ومناط عزته ، الى بلد ناء وقوم غرباء

« ذلك ان محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما راى ما يصيب اصحابه من البلاء ، وانه لا يقدر ان يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكا لايظلم عنده احد ، وهى ارض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه ! »

فكان «عثمان بن عفان» اول من هاجر الى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة «رقية» على قرب عهدهما بالزواج

وتجلد المهاجر وهو يلقى نظرة وداع على البلد الحبيب أما «رقية» فلم تملك دمعها ، وهى تطوف بمغانى صباها

مودعة ، وتعانق اباها وامها واخواتها الثلاث ، قبل ان تتبع زوجها الى ذلك البلد النائى المجهول

وتمهلت فى مسيرها الى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما آن اوان الرحيل تلفتت وراءها لتملأ عينيها من الوطن فحال الدمع دون ماتبغى

وكذلك سارت الجمال وئيدا تريد أن تتزود من عبير ام القرى ، فلما خرجت الى الصحراء العارية الجـــرداء ، انطلقت خفافا ، تتسمع غناء الحادى :

الاهل والأوطان فراقهم صعب
لكنـــه الايمـــان فداؤه القــلب
والروح والأبدان فليقبـــل الرب
فليقبـــل الرب

وهز الصوت الشبجى قلب « رقية » فأصغت اليه وهى ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم اطلت من هودجها لعل أثرا من مكة لايزال يلوح من بعيد ، فاذا زوجها « عثمان » على قيد خطوة منها ، يرنو اليها فى عطف مشوب بالعتاب !

وفهمت « رقية » ما يهجس فى خاطره ، فاشرق وجهها بابتسامة وضيئة وقالت :

ـ الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغمنا فى جوار البيت العتيق

ثم استدبرت أحب أرض ، وقد هون عليها محنةالفراق ان « عثمان » الى جانبها ، واكرم به صاحبا وعشيرا

□

وفى اول مرحلة من الطريق ، اناخت الابل ريثما تجمع

المهاجرون الاولون فى سبيل الله ، فبلغت عدتهم عشرة، فيهم من بنى عبد شمس ـ آل عثمان ـ ابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، اخو هند ، وصهر ابى سفيان ، تصحبه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية

ومن بنى اسد بن عبد العزى بن قصى ـ اخوال رقية ـ الزبير بن العوام بن خويلد

ومن بنى عبد الدار بن قصى ـ ابناء عم عثمان ورقية ـ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار

ومن بنى زهرة ـ اخوال الرسول ـ عبد الرحمن بن عوف الزهرى

ومن بنى مخزوم ، عبد الله بن عبد الاسد ، ابن عمة الرسول ، برة بنت عبد المطلب ، تصحبه زوجته هند بنت زاد الركب ، ابى امية بن المغيرة المخزومى التى تزوجها الرسول بعد « أحد »

وتبادل المهاجرون الاولون تحية الاسلام ، ثم قاموا جميعا للصلاة ، يؤمهم عثمان بن مظعون الجمحى صاحب الرسول، فلما قضوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله أن ينصر دينه ، ويحمى رسوله من كيد المشركين.

واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمرأوا ما يملأ قلوبهم من شجن ، وطاب لهم أن يكتووا بنار الغربة فى سبيل دينهم الحق ، والتمسوا العوض عمن فارقوا من الاهل والاحباب ، فى هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السفر والاخوان فى الدين والهجرة

□

ورحبت الحبشه بالمهاجرين الاولين ، واوسعت لهم فى

ارضها مكانا سهلا ، ثم مالبثت ان استقبلت افواجا جديدة من اخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين غير ابنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو ولدوا فى المهجر

وسر «رقية» أن تجد فيهم من بنى هاشم : ابن عم ابيها « جعفر بن أبى طالب » ، ومعه امراته «أسماء بنت عميس»

ومن بنى امية ، آل زوجها عثمان ، عمرو بن سعيد ابن العاص بن أمية ، وأخاه خالدا ، ومعهما زوجتاهما

ومن بنى اسد ، عبد الله بن جحش ـ ابن أميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول ـ وأخاه عبيد الله ، معه امراته ام حبيبة بنت ابى سفيان بن حرب ، التى تزوجها الرسول بعد سنين

ومن اخوالها بنى زهرة ، عامر بن ابى وقاص بن أهيب ابن عبد مناف بن زهرة

ومن بنى عامر ، ثمانية نفر منهم السكران بن عمرو ، ومعه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس ، التى تزوجها الرسول بعد عام الحزن

واحاط المهاجرون العشرة الاولون بالوافدين يسألونهم كيف تركوا الرسول ، وكيف حال الاهل والصحابة بمكة !؟

قالوا : على العهد بهم ، لم ينسوا من هاجروا ..

وحدثوا ان « النبى » افتقد انباء ابنته ، حتى اتتامرأة اخبرته صلى الله عليه وسلم انها رات رقية وزوجها ، فقال :

« منحهما الله ، ان عثمان أول من هاجر بأهله »

الاصابة ٨٣/٨

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين ، كما لم تضق بمن سبقوهم ، بل أمنهم «النجاشى» وأحسن جوارهم ، وتركهم أحرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا . . .

هنالك رفع « عبد الله بن الحارث بن قيس » صوته منشدا وهو يرجو أن يسمع من بمكة :

يا راكبا بلغن عنى مغلغلة
من كان يرجو بلاغ الله والدين

كل امرىء من عباد الله مضطهد
ببطن مكة مقهور ومفتون

أنا وجدنا بلاد الله واسعة
تنجى من الذل والمخزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ى فى الممات وعيب غير مأمون

ثم انثنى الى قلبه المثقل بأشجان الغربة ، فهاجت مواجعه لما ذكر من بغى قريش ، وقال :

أبت كبدى ـ لاأكذبنك ـ قتالهم
على ، وتأباه على أناملى

وكيف قتالى معشرا أدبوكم
على الحق أن لا تأشبوه بباطل

وقال « عثمان بن مظعون » يعاتب ابن عمه وكان شريفا فى قومه :

أأخرجتنى من بطن مكة آمنا
وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع

تريش نبالا لا يواتيك ريشها
وتبرى نبالا ريشها لك أجمع

وحاربت اقواما كـراما اعـزة
واهلكت اقواما بهم كنت تَفـرع
ســـتعلم ان نابتك يوما ملمة
واسلمك الاوباش ، ماكنت تصنع !

وبلغت هذه الاصوات ومثلها مكة ، فافزعت قريشـا فوق مابها من فزع

واطار النوم من عيونها ، ان اصحاب محمد قد امنوا بأرض الحبشة واصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون بينهم ان يبعثوا منهم رجلين من دهاتهم ، لكى يفسدوا مابين النجاشي وبين المهاجرين المغتربين

ووقع اختيارهم على عبد الله بن ابى ربيعة ــ والد عمر ــ وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ، فانطلقا بها على مرای ومسمع من محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن بقى الى جانبه من اصحابه وآله

واشفق « أبو طالب » على من بأرض الحبشة ــ وفيهم ولده جعفر ، وولدا ابنتيه أميمة وبرة ، ورقية حفيـدة اخيه عبد الله ــ من مكيدة عمرو وصاحبه ، فأنشد شعرا يستثير فيه كرم « النجاشي » ويحضـه على أن يحمى جواره :

الا ليت شعرى كيف فى النأى « جعفر »
وعمـرو ، واعـداء العـدو الاقارب ؟
وهل نالت فعـال النجاشي جعفـرا
واصحابه ، او عاق ذالك شـاغب ؟
تعـلم ، ابيت اللعن ، انك ماجـد
كـريم ، فلا يشـقى لديك المجانب

وانك فيض ذو سـ ـجال غـزيرة
ينـ ـال الاعادى نفعهـ ـا والاقارب

فهزت قريش رأسها لما سمعت نداءه ، وقال، قائلهـا مستهزئا : ما يبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه؟ وماذا تجدى الكلمات مع الهدايا التى حملها مبعوثا مكة الى النجاشي وبطارقته ؟

▭

وكان المهاجرون فى مقامهم النائى ، يرهفون أسماعهم الى ماتناثر من شائعات شتى مبهمة عن ائتمار قريش بالمسلمين المغتربين فلا يكادون يلقون اليها بالا ، حتى رابهم ذات يوم وصول عمرو بن العاص وعبد الله بن ابى ربيعة الى هناك والتماسهما لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر

ثم ما لبث المهاجرون ان تلقوا دعوة النجاشي ليتحدث اليهم فى أمر ذى بال ، فذهبوا وهم يتساءلون :

ــ ماتقولون للرجل اذا جئتموه ؟

وكان الجواب الذى اجمعوا عليه :

ــ نقول والله ما علمنا ، وما امرنا به نبينا

وسعت المهاجرات الى منزل رقية بنت النبى ، وقد خامرهن شيء من القلق ، فاذا لديها « ام سلمة ، هند بنت زاد الركب » تحدث عما علمت من مكيدة الرجلين قالت :

ــ هو ماسمعتن من ائتمار قريش بنا لما بلغها انا جاورنا بالحبشة خير جار : امنـا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى

لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وقالوا لهما أن يدفعا الى كل بطريق هديته ، قبل ان يكلما النجاشى فينا ، ثم يقدما الى النجاشى هديته ، ويسالاه أن يسلمنا اليهما قبل أن يكلمنا

« فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا .. وقالا لكل بطريق منهم : انه قد ضوى الى بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ـ ابصر بهم ـ واعلم بما عابوا عليهم

« فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم انهما قدما هداياهما الى النجاشى فقبلها منهما ، ثم كلماه بمثل ما كلما به البطارقة ، فقالت البطارقة حوله : صدقا ايها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم ، فاسلمهم اليهما فليرداهم الى بلادهم وقومهم

« فغضب النجاشى وقال : لاها الله ! اذن لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على سواى حتى ادعوهم فاسالهم عما يقول هذان فى امرهم ، فان كانوا كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ما جاورونى

« وهذا هو قد ارسل الى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر ما الله يرضى لنا »

وطال انتظارهن قبل ان يعود الرجال من قصر النجاشي ويحدثوا عما كان :

استقبلهم النجاشي وقد جمع إساقفته حوله ومعهم صحفهم منشورة ، فسالهم :

ـ ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

فأجاب عنهم « جعفر بن ابى طالب » :

ـ ايها الملك ، كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والاوثان ، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وامرنا ان نعبد الله وحده لانشرك به شيئا ، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا الا نظلم عندك ايها الملك »

فصمت النجاشي مليا ثم سال :

ـ هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

اجاب جعفر : نعم

قال النجاشي : فاقرأه على
فتلا جعفر صدرا من سورة مريم
قالوا : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :
ـ ان هذا والذى جاء به « عيسى » ليخرج من مشكاة واحدة
والتفت الى عمرو وعبد الله قائلا :
ـ انطلقا ، فلا والله لا اسلمهم اليكم ولا يكادون
فانصرفا ، اما عمرو فلم يفقد ثقته فى دهائه ولا استسلم للهزيمة صاغرا ، بل قال مهددا : والله لآتينه غدا عنهم بما استأصل به خضراءهم ـ يعني شجرتهم التى منها تفرعوا ـ
واما عبد الله بن ابى ربيعة ، فأخجله ان يكون النجاشي الغريب ، ابر بجيرانه منه ، ومافيهم من لايمت اليه بقربى او رحم
قال لعمرو : لاتفعل ، فان لهم ارحاما وان كانوا قد خالفونا
ورد « عمرو » فى اصرار :
ـ والله لاخبرنه انهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد !
ومضى النهار كله وقطعة من الليل ، وعمرو بن العاص يدبر لغده ، إما المهاجرون فباتوا آمنين لايخافون منالنجاشي غدرا ، وقد اجمعوا رايهم ان يجيبوه اذا سألهم عن عيسى بن مريم ، بما قال الله وماجاءهم به نبيهم محمد ، وليكن بعد ذلك مايكون
فلما اصبحوا دعاهم النجاشي وسألهم عما يقولون فى عيسى فأجاب جعفر :

ـ نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول

قالوا : فمد النجاشى يده الى الارض فأخذ منها عودا وقال لجعفر :

ـ والله ما عدا عيسى بن مريم ماقلت هذا العود ..

ثم أمسك لحظة ، وجعل ينقل بصره بين البطارقة ، وعمرو وصاحبه ، حتى استقر على المهاجرين فقال :

« اذهبوا فانتم آمنون بأرضى ، من سبكم غرم ـ كررها ثلاثا ـ وما احب أن لى جبلا من ذهب ، وأنى آذيت رجلا منكم »

والتفت من بعد ذلك الى بطارقته قائلا :

« ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما اخذ الله منى الرشوة حتى رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فاطيعهم فيه »

ورجع عمرو وعبد الله الى قريش بخفى حنين

□

وأقام المهاجرون مع خير جار ماشاء الله لهم أن يقيموا على أن قلوبهم ظلت ابدا تنزع الى مكة ، وتحن الى من تركوا بها من الاهل والاحباب .

وظلت أسماعهم مرهفة ، تتلهف على انباء الرسول وصحبه فى حربهم المقدسة مع عبدة الاوثان

ولعل السيدة « رقية » كانت أشد المهاجرين حنينا الى مكة ، ولعلها ما افتقدت ابويها وأخواتها من قبل ، مثلما

افتقدتهم آنذاك ، فلقد اثرت الاحداث الشداد التى مرت بها فى صحتها ايما تأثير ، فأسقطت جنينها الاول ، حتى خيف عليها من فرط الضعف والاعياء

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبـــــــه ، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم ، ما أعانها على اجتياز الازمة الحرجة ، ريثما عاودتها العافية بورود الانباء من مكة ، ان قريشـــــا يئست من الرسول وصحبـــه ، فرفعت الحصـــار المنهك الذى ضربته على الهاشميين

واضافت الشائعات أن قريشا ثابت الى رشدها لما رات من عجيب ثبات النبى وصدق ايمان الذين اتبعوه ، فمالت طائفة منها الى الاسلام عن تأثر واقتناع ، ورغبت أخرى فيه التماسا للغنم والمجد حين يعلو أمر محمد وينتشر الدين الجديد

وقد أصغى مهاجرة الحبشة الى هذا الذى قيل وشاع فهفت قلوبهم الى العودة الى الوطن

ولم يقو بعضهم على مغالبة ذلك الحنين المستشـــار ، فتهيئوا للرحيل على عجل ، يحدوهم الشوق الى أحب ارض واعز موضع ، على حين آثر آخرون ان يتلبثـوا فى مهجرهم ، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قـريش للرسول صلى الله عليه وسلم واسلام كثرة منها

□

سار الركب فى طريق مكة ، وقد بلغ عددهم ثلاثةوثلاثين رجلا يتقدمهم « عثمان بن عفان » وزوجتـــــه السـيدة

« رقية » والزبير بن العوام ابن اخت السيدة خديجة ، وعبد الله بن جحش ابن عمة الرسول ، وابو سلمة بن عبد الاسد معه امراته « أم سلمة ، هند بنت أبى امينة » ، والسكران بن عمرو معه امراته « سودة بنت زمعة »

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون انفسهم بلقاء الاحباب ، ويتشاغلون بتمثل ما ينتظرهم فى الوطن من انس وطمانينة

حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحلهم ساعين الى البلد العتيق ، خدرتهم النشوة وتركوا خيالهم يحملهم على اجنحته السحرية الى وادى الاحلام

الى أن بلغوا مشارف مكة ، فكانت اليقظة المروعة ..

فهناك على الصخور الملتهبة ، رأوا بعيونهم التىمازالت بها بقية من خدر النشوة ، نفرا من اخوانهم المسلمين المستضعفين ، تسومهم زبانية قريش سوء العذاب

واخذت العائدين صيحات من هنا ومن هناك ، تعدهم بالويل والهلاك

وصمت الحادى ، وطارت النشوة ، وتمزقت الروى ، وتبعثرت الأحلام

□

ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا ادبر النهار دخل بعضهم مكة فى جوار من الوليد بن المغيرة المخزومى ، او ابى طالب ابن عبد المطلب الهاشمى

وعلى اثرهم دخل الباقون مستجيرين بالحرم الاقدس، وعلى وجوههم نور الاستشهاد

وآبت « رقية » الى بيت ابيها مشوقة مجهدة ، فخفت اختاها ام كلثوم وفاطمة للقائها ، وتشبثتا بها معانقتين ، وهما تغالبان الدمع وتتكلفان التجلد

وافلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

ـ أين أبى ، واين أمى ؟

اجابتا :

ـ أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشـة

ثم اختلجت شفاههما فى تأوه مكتوم

وعادت رقية تسأل وقد أوجست خيفة :

ـ وأمى ، اين هى ؟

فأطرقت « أم كلثوم » صامتة لا تجيب ، أما « فاطمة » فغادرت الغرفة وهى تنشج باكية

هنالك كفت « رقية » عن أسئلتها ، وسارت مترنحـة نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر ، مثلجة الاطراف

الى أن جاء أبوها صلى الله عليه وسلم ، فأذاب ذلك الجمود القاتل بحرارة لقائه ، وازاح بحنوه ذلك الركام الصخرى الذى جثم على قلب فتاته

واسعفها الدمع ماشاء لها حزنها ولوعتها ، ثم أوت الى الصدر الرحب الكريم ، وثابت الى السكينة والصبر

□

لم يطل بها المقام بمكة بعد ذاك ..

هاجر ابوها النبى الى يثرب ، وكذلك هاجرت هى فى

صحبة زوجها « عثمان بن عفان »

وفى دار الهجرة ، وضعت طفلها عبد الله بن عثمان ، فملأ عليها منزلها الجديد انسا ، واقبلت عليه تريد ان تنسى به مرارة ثكلها لجنينها البكر ، ولوعة مصــــابها فى أمها ، وماذاقت فى هجرتها من شجن الغربة

وحسبت انها قد استوفت حظها من الآلام ، لكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد

مات « عبد الله » طفلا بنقرة من ديك ، فترنحت رقيــة تحت وطأة الثكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى

وأقام « عثمان » الى جانبها يمرضها ويرعاها ، حتى اذا تناهى الى سمعه صوت داعى الرسول يؤذن ان حى على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين والانصار للقاء عدوهم فى « بدر » ، ود عثمان لو لبى الداعى الكريم ، لكن قلبه لم يطاوعه على فراق « رقية » التى كانت تعالج ما يشبـــه سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر مكرها ، وراح يشهد معركة الموت فى أعز من له !

وقسا الصراع وطال ، ثم رفت روحها على شفتيها فى حشرجة وانية ، فحطت عيناها على زوجها المعذب ،وغابت عن الوجود

وقام « عثمان » فاغمض عينيها ولثم جبينها واناملها ثم أصغى الى هتاف البشرى بانتصار المسلمين فى «بدر»

□

وجاء الاب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادى الحزن والاسى ، ثم انثنى فى رفق نحو ابنته « فاطمة » التى

اكبت على مضجع أختها تبكى ، فجعل يمسح دموعهــا بطرف ثوبه (الاصابة ٨/٨٣)

وهنا لم تتمالك النساء انفسهن امام المشهد الفاجع ، فانسحبن خارج الغرفة مجهشات، بالبكاء وقد تخلى عنهن ماكن يصطنعن فى حضرة الرسول من تجمل وتصبر .

وهاج نحيبهن غضب « عمر بن الخطاب » فزجرهن فى عنف وقسوة ، محاولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هــذا المكان من سكينة ووقار ، لكن الرسول الرحيم كفه عنهن قائلا :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان »

وصلى الاب النبى على ابنته رقية

وشيعت «يثرب» جثمان بنت الرسول، ذاتالهجرتين، حتى ووريت الثرى الطيب الذى ارتوى يومئذ بدماءالابرار من شهداء « بدر »



أم كلثـــوم

عودة الى البيت
الهجرة
مع رقية دائما
الرحيل

اراد الله بها خيرا ففارقها « عتيبة بن عدو الله ابى لهب » ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع « حمالة الحطب » كما نجت معها اختها العزيزة « رقية » التى ما لبثت ان تزوجت « عثمان بن عفان » وهاجرت معه الى الحبشة

وبقيت « أم كلثوم » مع أختها الصغرى « فاطمة » فى بيت أبيهما الرسول بمكة ، تشـــاركان أم المؤمنين الاولى عبئها الجليل ، وتستقبلان معها البطل النبى اذ يعود كل يوم الى بيته ، وعلى جسمه الكريم ندوب المعركة ، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقى من أذى قريش وحربها ، فيحطن به فى بر وحنو ، يحاولن ما استطعن ان ينفضن عنه هــذه الآثار ، وان يروحن عنه فى الفترات القليلة التى كان يسكن فيها الى بيته واهله

وهكذا عاشت « أم كلثوم » مع أسرتها فى صميم معركة الاضطهاد الاولى التى بلغت أقسى ذروتهـــا حين يئست قريش من خذلان أبى طالب لابن اخيه ، وخاب سعيها لديه كيما يسلمه الى أعدائه فيبطشوا به

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب ، واسلم عمر بن الخطاب ، فطار صواب قريش وتخلى عن رجالها ما عرفوا به من رشد وحلم ، فائتمروا بينهم على مقاطعــة بنى هاشم ، وسجلوا مقاطعتهم فى وثيقـــة علقوها فى جوف الكعبة ، وخرج محمد بأسرته ومن تبعـــه الى شعب أبى طالب ،

وانحازت اليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب غير أبى لهب
وهنالك عاشوا في ضيق الحصـــار ، حتى انهم كانوا يأكلون الخبط وورق السمر ، واقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل اليهم شيء الا سرا

حدثوا أن ابا جهل بن هشام ، لمح حكيم بن حزام بن خويلد الاسدى ، يسير متخفيا معه غلام يحمـل قمحا ، يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى مع زوجهـــا الرسول وبنتيها أم كلثوم وفاطمة فى الشعب ، فتعلق به ابو جهل وصاح :

« اتذهب بالطعـام الى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى افضحك بمكة » !

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنـا قول سعد بن ابى وقاص بعد محنة الحصار بسنين :

« لقد جعت حتى انى وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته فى فمى وبلعته وما أدرى ما هو الى الآن ! »

□

ومن عجب ان ذلك السهم الذى راشته قريش ، ارتد عن المؤمنين دون أن يزعزع ايمانهم مثقال ذرة، أو يزحزحهم عن موقفهم من نصرة الرسول قيد شعرة ، وعاد منطلقا الى معسكر قريش فأصاب منها مقتلا !

ذلك ان نفرا من مشركى قريش ، روعهم الحصـــار الوحشى المضروب على المؤمنين منهم ، فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب

وبدأ الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة النـدم وعذاب الضمير ..

حدثوا ان هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى ــ وكان ابن اخى نضلة بن هاشم لأمه ــ كان يأتى ليلا بالبعير قد اوقره طعاما ، حتى اذا بلغ به فم الشعب ، خلع خطامه من راسه ثم ضرب على جنبه ، فيدخل البعير على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، بما يحمل

وذات ليلة ، خرج الرسول الى قريب من فم الشعب يستقبل البعير الموقر طعاما ، كيما يشرف على توزيعه فى ذوى العيال ممن معه ، وسهرت « أم كلثوم » عند فراش أمها التى علت بها السن وانهكتها الاحداث واحست دنو اجلها ، وان بدا انها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ، وتتشبث بالحياة من اجل زوجها الحبيب ، ومن أجل بنتيها أم كلثوم وفاطمة

وقالت تناجى ابنتها :

ــ ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلى المحنة ، فاموت قريرة العين راضية

فهتفت « أم كلثوم » من كل قلبها :

ــ لا بأس عليك يا اماه !

ثم خنقتها العبرات فلم تزد

واستطردت الأم :

ــ اى وربى لابأس على ياابنتى ! ما من امراة فى قريش ذاقت ما ذقت من نعيم ! بل ما من امراة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من مجد : حسبى من حياتى انى زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى اننى المؤمنة الأولى ، وانى ام المؤمنين

ثم اسبلت عينيها وهمست :

ـ اللهم انى لا أحصى ثناء عليك ! اللهم انى لا اكره لقاءك، ولكنى أطمع فى مزيد من لذة التضحية وقدسيـــــة الألم وشرف الاستشهاد ، لأكون جديرة بما انعمت على !

واحتضر الضوء النحيل الشاحب الذى كانت تبعثـه ذبالة واهية ، وشمل الكون سكون خاشع ، وارهف الليل سمعه لهذه النجوى المؤثرة ، فلم يعد يسمع فيه ســوى انفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب ابنتها التى راحت تتعبد صامتة

ثم .. فتح الباب ، فانبثق منه شعاع من نور باهر اضاء المخدع ، ودخل رسول الله بهى الطلعــــة متهلل الأسارير ، فما كادت زوجته تلمحه حتى نهضت للقـائه بوجه مشرق وقد سرى فى بدنها الكليل فيض من القــوة والعافية

واصغت « أم كلثوم » الى ما كان ابوها ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحمل من الانباء ، فأحست كأن ظلام الليــل ينقشع رويدا رويدا ، كيما يفسح المجال لنور فجر جديد

فلقد عاد العم « أبو طالب » فى ليلتـــه تلك من زيارة الحرم الأقدس ، ليحدث من فى الشعب عما راى هنالك وما سمع :

قال ان هشام بن عمرو ـ ذاك الذى كان يحمل المئونة الى المحاصرين ليلا ـ مشى الى زهير بن زاد الركب ابىأمية المخزومى ، أخىهند ام سلمة ، وابنعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له :

ـ يا زهير ، اقد رضيت أن تاكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، واخوالك حيث علمت ؟ اما انى أحلف بالله

ان لو كانوا اخوال ابى الحكم بن هشام ، ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه من مقاطعتهم ، ما اجابك اليه ابدا !

فاصغى زهير ، وفكر مليا ثم سأل :

ــ ويحك ياهشام ! فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى انقضها

قال هشام :

ــ قد وجدت رجلا

فسأله : من هو ؟

اجاب : أنا ...

قال زهير : ابغنا رجلا ثالثا

فذهب هشام الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يامطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وانت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ اما والله لئن أمكنتموهم من هذه ، لتجدنهم اليها منكم سراعا

فكان جواب مطعم كجواب زهير

ومضى هشام بعد ذلك الى ابى البخترى بن هشام فحدثه بمثل ماحدث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، فسأله ابو البخترى :

ــ وهل أجد من يعين على هذا ؟

أجاب هشام :

ــ نعم ، ابن زاد الركب ، والمطعم بن عدى ، وأنا ، معك

فطلب اليه أبو البخترى ان يلتمس مؤيدا خامسا ، فذهب الى زمعة بن الاسود بن المطلب بن اسد ، فكلمه فى بنى هاشم وذكر له قرابته منهم وحقهم عليه ، فأجاب زمعة

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا بخط الحجون ـ باعلى مكة ـ وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واتفقوا كذلك على ان يبدأ زهير فيكون أول من يتكلم ، فى مجتمع القوم

فلما اصبحوا غدوا الى انديتهم ، وغدا « زهير » عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ، ثم اقبل على الناس فقال :

ـ يا اهل مكة ، انأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة

قال أبو الحكم بن هشام ، وكان فى ناحية المسجد :

ـ كذبت ، والله لاتشق !

فأجابه صوت « زمعة بن الاسود » :

ـ أنت والله اكذب ، ما رضينا كتابها حيث كتبت !

وثنى أبو البخترى :

ـ صدق زمعة ، لانرضى ماكتب فيها ولا نقر به

وايدهما المطعم :

ـ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقل أبو الحكم عينيه بين هؤلاء الرجال الخمسة ثم صاح مستريبا :

ـ هذا أمر قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان

فلم يعره الرجال اهتماما ، وقام المطعم ـ بمرأى من القوم ، وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد ـ والتمس الصحيفة ليشقها ، فاذا الارضة قد اكلتها فلم تدع منها الا : « باسمك اللهم » !

وجمت قريش ، واسقط فى يديها واحست بالسهم الذى راشته يرتد الى صدرها فيمزقه

ونهض ابو طالب يسعى الى الشعب بالبشرى ، وقدذكر ـ وهو فى طريقه من البيت العتيق ـ بنيه الذين هاجروا الى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو ان يبلغهم هنالك صدى من صوته :

الا هل اتى بحرينا صنع ربنـــــا
على نأيهم ، والله بالنـــــاس أرود

فيخبرهم ان الصحيفـــــة مـزقت
وان كل مالم يرضـــه الله مفســـد

تراوحهـــا افك وسحـــر مجمع
ولم يلف ســـحر آخر الدهر يصعد

جزى الله رهطـا بالحجون تتابعـــوا
على ملأ ، يهدى لحـــزم ويرشـــد

قعــودا لدى خطم الحجـــون كأنهم
مقـــاولة ، بل هم اعـــز وأمجـد

قضوا ماقضوا فى ليلهم ثم أصبحـوا
على مهل ، وســـائر الناس رقـــد

وايقظ صوته كل من فى الشعب ، فهبوا من مضاجعهم يهتفون للبشرى السعيدة ، وصاح المسلمون منهم : « الله اكبر »

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا ، لفرط الفرح والانفعال

واصبحوا ساعين الى الكعبة فطافوا بها ، ثم آبوا الى

بيوتهم فى مكة ، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعـد أن خاب كيدها وتهاوى الحصار

□

وفى بيت النبى بمكة ، رقدت السيدة خديجة فى فراشها تتهيأ للقاء ربها بعد ان اطمأنت على زوجها الحبيب ، ثم مالبثت روحها أن فاضت ، والنبى الى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم

وبناتها الثلاث : زينب وأم كلثوم وفاطمة ، يحطن بفراشها ويتزودن منها قبل الرحيل

وفى اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة ، حملت الى الحجون ، وهنالك اضجعها زوجها الرسول بيديه فى حفرتها ، ثم ودعها وآب الى بيته محزونا ، فضم اليه ابنتيه ام كلثوم وفاطمة ، يواسيهما ويعينهما على المصاب الفادح

واحس من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد نبا به ، فلم يعد له فيها بعد رحيل « خديجة » مقام !

لكن طيفا منها ظل يلم به غاديا ورائحا ، فيؤنس غربته فى وطنه ، حتى اذن الله له فى الهجرة الى يثرب

وودع الرسول بناته ، ثم ذهب فى ضحوة النهار الى بيت الصديق ابى بكر فاستصحبه

وتلبث لحظة قبل ان يفصل عن مكة ، فاشرف من علية هناك على مهد الصبا ومبعث النور ، ثم قال :

« والله انك لاحب ارض الله الى الله ، وانك لاحب أرض الله الى ، ولولا ان اهلك اخرجونى مافارقتك »

ومضى فى طريقه الى الغار يصحبه الصديق ، وترك ابنتيه

ام كلثوم واختها فاطمة ، وحيدتين فى البيت المهجور ، يكاد يتلفهما الاسى لولا رحمة الله

▭

وتلكات الايام فى سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ، ومضت الليالى حوالك ليلاء مثقلات بالسهد والشجن ، حتى جاءت البشرى بوصول النبى سالما الى يثرب ، ثم مالبث زيد بن حارثة أن اقبـــل ، ليصحب ام كلثوم وشقيقتها الصغرى الى دار الهجرة

▭

وامضت بنتا النبى يومهما الاخير بمكة مع اختهما زينب زوجة ابى العاص ، يذكرن الامس السعيد الذى ولى وراح

ثم اغلقن الدار التى شهدت ماضيهن الخلى ، وسعين الى الحجون فروين قبر الام بدموعهن

وامسكت ام كلثوم بيد اختها الصغرى فاطمة ، ومضت بها الى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل

والقت نظرة وداع على مغانى مكة وما تدرى أتكون اليها عودة !

ثم اندمجت فى الركب المهاجر ، وقد خفف عنها مصاب الفراق انها ذاهبة الى أبيها الرسول فى منزله الكريم بين الانصار !

▭

ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الاحداث

وشهدت « أم كلثوم » عودة أبيها منتصرا من « بدر » ،

كما شهدت موت شقيقتها الغالية « رقية »

وأهل العام الثالث ومايزال الحزن على رقية جديدا ، وما تزال قريش تبكى قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة

وكانت « أم كلثوم » تلمح «عثمان» فى هذه الفترة ، وهو يلازم أباها ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية

الى أن كان يوم من أيام شهر ربيع ، وقد أوى الرسول الى بيته يستريح ، فاذا عمر بن الخطاب يسعى اليه مستثار الغضب ليشكو اليه صاحبيه أبا بكر وعثمان

لقد عرض على أحدهما بعد الآخر ، أن يتزوج من بنته « حفصة » بعد أن مات عنها زوجها حصن بن حذافة ، فسكت أبو بكر ، وأجاب عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم

وسمعت « أم كلثوم » أباها الرسول يقول لعمر ملاطفا :

— يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة !!

وخفق قلبها لما سمعت !

فما من امرأة خير من بنت عمر غير بنت النبى ، فهل تشغل مكان أختها « رقية » فى بيت عثمان ؟

وعجبت لان أباها لم يحدثها فى هذا الامر من قبل ، وقد عهدته لايزوج احدى بناته دون أن يعرف رأيها

وعادت بها الذكرى الى ماض بعيد ، يوم وقفت هى وأختها الراحلة «رقية» تصغيان الى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابنى أبى لهب فى الزواج منهما

وقد عقد الزواج ، ثم واجهت الاختان حظهما المشترك ، الى أن طلقهما ابنا حمالة الحطب فى وقت واحد

وتزوجت « رقية » بعد ذلك من عثمان ، فأى قـــدر

عجيب يجمع بين الاختين ، او كتب لام كلثوم ان تتزوج هى الاخرى من زوج شقيقتها : عثمان بن عفان ؟!

وبينا هى تحدق ـ شبه نائمة ـ فى الخيوط الخفية التى ينسجها القدر ليربط بينها وبين رقية أبدا ، دخلت عليها « أم عياش » خادم النبى ، تدعوها للقاء أبيها صلى الله عليه وسلم

وتم عقد زواجها من عثمان ، « على مثل صداق رقية ، وعلى مثل صحبتها »

وخرجت الى بيت زوجها وعليها ثوب من حرير شبيه بذاك الذى دخلت به رقية على عثمان

وبعث النبى معها « ام عياش » كما بعثها مع اختها من قبل ..

فلما شارفت البيت الجديد ، احست كأن طيفا من اختها الراحلة ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها فى يقظة او منام

همست فى شجن :

« لم يبق يا رقية الا ان الحق بك حيث ترقدين ، فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا ! »

▭

لكنها عاشت ست سنوات ، رات فيها الاسلام يبلغ أوج انتصاره ، وشاهدت اباها البطل يخرج من معركة فى اثر معركة ، مؤيدا مظفرا ...

حتى ماتت فى بيت عثمان ، فى شهر شعبان سنة تسع ، عن غير ولد

ووسدوها ثرى «يثرب» الى جانب مابقى من رفاة أختها ، ووقف النبى على قبر ابنتيه دامع العينين ، مثقل القلب بالم الثكل المتتابع . . .

ورحم الله « أم كلثوم » فاعفاها من محنتى اليتم والترمل، فلم تشهد اباها النبى بعد عام واحد يرحل عن الدنيا ، ولا شهدت زوجها « عثمان » يلقى مصرعه الدامى بعد نحو ربع قرن من الزمان ، على مرأى من زوجته الثالثة : ام البنين !



فاطمة الزهراء

احب البنات
فى دوامة الاعصار
الهجرة
البيت الجديد
سحابة صيف
محنة ثقيلة
حلم هنىء
يقظة مروعة
التئام الشمل !
بدء تاريخ !

كانت رابعة البنات فى تلك البيئة التى عرفناها مفتونة بالبنين ، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الاسلامى كما لم يدخله أحد قط بعد أبيها النبى ، وتركت فيه من خطير الآثار ما جاوز كل تصور واحتمال ، يوم استقبلها البيت المحمدى وليدة ، قبل المبعث بخمس سنوات

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذى ارتضت فيه قريش « محمدا » حكما فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الاسود ، بعد تجديد بناء الكعبة المكرمة ، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم تألفه « مكة » فى مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد . وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها، وبخاصة كبراهن « زينب » التى كانت لها بمثابة أم صغيرة

حتى تزوجت « زينب » من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع ، ومن بعدها تزوجت « رقية وأم كلثوم » من ابنى أبى لهب، فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة فى اثر أخرى، وأعياها ـ فى طفولتها الباكرة ـ أن تدرك حكمة هذا الزواج الذى يفصل بين البنت وأبويها ، وبين الاخت وأختها ، وشغلتها هذه الخاطرة أياما وليالى ذات عدد ، حتى تركت أثرا عميقا فى مشاعرها البكر وقلبها الغض ، وكان للظروف التى طرأت على الاسرة حينذاك ، يد فى تقوية ذلك الاثر ، فلقد شغل الاب بتأملاته التى انتزعته من دنيا الناس ومضت

به الى عزلة عابدة متأملة ، وشغلت آلام بزوجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها فى أثره اذا غاب ، وشغلت الاخوات الثلاث بحياتهن الزوجية الجديدة، وتركت «فاطمة» شبه وحيدة مع خواطرها التى انفردت بها وراحت تؤثر فى وجدانها على مهل

وكانت بحيث تجد فى ابن العم ، على بن أبى طالب ـ ذاك الذى اختاره أبوها فضمه اليه واتخذه ولدا ـ أخا وصاحبا، فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين ، لولا أنها استحيت أن تفضى اليه بهمومها التى تدور حول الزواج ، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها

ثم كان الحادث الاجل الذى هز الجزيرة هزا ، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظها فى عنف من أحلام طفولتها ، وألقى بها فى دوامة الاحداث الهائلة التى أعقبت المبعث

ووجدت نفسها ـ ولما تتجاوز الخامسة من عمرها ـ تواجه الصدمة العنيفة، وتقف فى مهب الاعصار المارد الذى أثارته الوثنية العتيقة فى وجه الدين الجديد .

لكنها لم تأسف على مافاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة ، ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال ، بل حلت تمائم صباها فى شجاعة ، وهجرت ملاعب أترابها ولداتها فى غير تردد ، واستقبلت الحياة الجديدة وهى تدرك على صغر السن ، معنى بنوتها للنبى الذى اصطفاه الله رسولا ، وتعى فداحة العبء الذى يجب عليها أن تحمله ، لتكون جديرة بمكانها من البطل

الذي يلقى قريشا مجتمعة ، أعزل الا من ايمانه بالحق، وحيداً الا من فئة قليلة مضطهدة

ولم تعد «فاطمة» تشعر بالوحدة التى كانت فيها قبل المبعث ، فلقد ربط الاسلام بينها وبين أبيها النبى، ووالدتها أم المؤمنين ، وأخواتها المسلمات ، برابطة أقوى من النسب وأغلى من الدم وأقرب من الرحم ، ونسى كل فرد فى البيت المحمدى شواغله الخاصة ، منذ تلاقوا جميعا حول دين واحد، لايدينون بغيره ، ورب أحد ، يجثون له سجدا ، لايشركون به الها آخر ولا يعبدون ربا سواه

وسرها أن « على بن أبى طالب» لم يتردد فى الايمان بأبيها الرسول ، اذ كان بمثابة أخ لهـا عزيز ، ولا يهون عليها أن يختلف بهما الدين فتحظى هى بنعمة الاسلام دونه ، ويترك هو مكانه فى بيت سيد البشر ، ليلحق بالعصبة الكافرة التى باءت بغضب من الله

وودت لواسلم شيخ الهاشميين «أبو طالب» فانه لكما قال أبوها الرسول : « وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابنى اليه وأعاننى عليه »

وودت لو أسلم شيخ الهاشميين «أبوطالب» فانه لكما قال زوج شقيقتها العزيزة زينب ، بل ودت لو أسلم بنو هاشم جميعا ، فهم آل أبيها وعشيرته الاقربون ، يعز عليه فراقهم، ويشق عليه حربهم وعداوتهم ، لكن الله أراد أن يمتحن آل النبى ويصهرهم فى بوتقة الآلام ، وشاء تعالى ــ جلت مشيئته ــ أن يضرب رسوله المصطفى المثل الاعلى فى قوة العقيدة وصدق الايمان وجلال التضحية

كما آثر ــ سبحانه وتعالى ــ فاطمة بنت محمد بالحظ

الاوفى من الالم العبقرى ، فكتب لها ان تشهد الحرب المقدسة وتصلى نارها منذ طفولتها الباكرة ، وتعيش دون اخواتها جميعا ، حتى يجود ابوها البطل بأنفاسه ، ويلحق بالرفيق الاعلى

وكانت لذلك كله اهلا .

وهذه هى ، قد هجـــرت ملاعب الصبا وانتبذت من صواحبها مكانا قريبا من ابيها فى قلب الميدان ، وكان صغر سنها يتيح لها ان تخرج من البيت وتتبع اباها اذ يسعى كل يوم الى اندية قريش ومحافلها ليبشر بدعوته ، ويلقى فى سبيلها ما يلقى من كيد الطغاة واذى السفهاء

كانت هناك ، قريبا منه ، يوم اقبل يمشى الى الكعبة حتى استلم الركن ، فما لمحه المشركون حتى وثبوا اليه وثبة رجل واحد ، واحاطوا به يقولون : انت الذى تقول كذا وكذا ؟ ــ وعـــدوا ما قال من شتم آبائهـــم وعيب آلهتهم وتسفيه احلامهم

فيقول الرسول : نعم ، انا الذى يقول ذلك

وامسكت « فاطمة » أنفاسها وهى ترى رجلا منهم يأخذ بمجمع رداء ابيها ، وشل الذعر حركتها فوقفت حيث هى ، وقام ابو بكر دون الرسول وهو يقول باكيا :

« اتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ؟! »

فالتفتوا اليه وشرر الغضب يتطاير من عيونهم ، فجذبوه بلحيته ، ثم لم يدعوه الا وقد صدعوا راسه !

وغادر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ البيت الحرام ، ومشى فى الطريق ، وابنته تتبعه عن كثب ، فلم يلقه احد من الناس ، لا حر ولا عبد ، الا كذبه وآذاه ، حتى بلغ بيته

فتدثر فى فراشه مقرورا ينتفض من شدة ما أصابه

وكانت هناك ، تقف غير بعيد من ابيها وتحوم بعينيها وقلبها حوله ، اذ هو ساجد فى الحرم ، وحوله ناس من مشركى قريش ، فجاء « عقبة بن ابى معيط » بسلى جزور ، فقذفه على ظهره ، فلم يرفع ــ صلى الله عليه وسلم ــ راسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلى ودعت على من صنع ذلك ، واذ ذاك رفع النبى راسه وقال :

« اللهم عليك الملأ من قريش ! اللهم عليك ابا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وعقبة بن ابى معيط وابى بن خلف » ــ البخارى ٢/١٤٤

فخشع المشركون لدعائه ، وغضوا بأبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف الى بيته ، تصحبه ابنته فاطمة

ولو نظرت ــ رضى الله عنها ــ بظهر الغيب ، لرات هؤلاء الملأ الذين دعت ودعا عليهم ابوها الرسول ، صرعى مجندلين حول ماء بدر ، بعد سنوات معدودات !

وكانت هناك ، يوم خرج ابوها النبى الى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى :

« وانذر عشيرتك الاقربين » فجعل ينادى :

« يا معشر قريش ، اشتروا انفسكم لا اغنى عنكم من الله شيئا

« يا بنى عبد مناف ، لا اغنى عنكم من الله شيئا

« يا عباس بن عبد المطلب ، لا اغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية بنت عبد المطلب ، لا اغنى عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا اغنى عنك من الله شيئا »

وخفق قلب « فاطمة » حنانا وتأثرا ، فهمست تقول :

ــ لبيك يا احب والد واكرم داع .

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف ، مرفوعة الهامة مشرقة الاسارير ، وكانما ازدهاها ان يختارها ابوها النبى ، من بين اخواتها جميعا ، بل من بين اهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر انه لا يغنى من الله شيئا عن اعز الناس عنده واحبهم اليه وادناهم منه

لقد بدا بقريش قومه وقبيلته ، ثم ببنى مناف عشيرته الأقربين ، ثم عمه العباس وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هى آخر من يتخذه الرسول مثلا فى ذلك الموقف الجليل ، فعندها اذن ، ينتهى اقصى ما يبلغه صلى الله عليه وسلم فى العظة والاعتبار ، واذا كان محمد لا يغنى عن بنته فاطمة من الله شيئا ، فهل يطمع غيرها ــ كائنا من كان فى ان يغنى عنه احد من الله شيئا !؟

وليست هذه هى المرة الوحيدة التى يضرب النبى فيها المثل بابنته فاطمة تأكيدا لما يريد نشره فى امته من الحق ، فلقد حدثوا ان امراة من قريش سرقت بعد ان اسلمت ، وبلغ الرسول امرها فأشفقت قريش ان تقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا اسامة ابن زيد ليشفع فيها وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل ، قال صلى الله عليه وسلم :

« لا تكلمنى يا اسامة ، فان الحدود اذا انتهت الى فليس لها مترك ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها »

ــ الاصابة ٨/ ١٦٠

ولم يقل الرسول : « لو كانت بنت محمد » على الاطلاق

والتعميم ، بل ذكر « فاطمة » وهى من عرفت قريش مكانتها الاثيرة عند ابيها الرسول ، ولقد سمع صلى الله عليه وسلم يقول :

« خير نساء العالمين اربع : مريم وآسية وخديجةوفاطمة»

وسمع كذلك يقول لها : « ان الله ليرضى لرضاكويغضب لغضبك »

وعن ابن جريج : « قال لى غير واحد : كانت فاطمة اصغر بنات النبى صلى الله عليه وسلم واحبهن اليه »

وهذه المرويات تلفتنا الى ما سبق ان اشرنا اليه من موقف متعصبى المستشرقين فى اتهام ما يملأ كتب السيرة والحديث من حب النبى لابنته فاطمة ، والزعم بانها مرويات صنعت بأخرة بعد ما تطورت فكرة الشيعة تطورها السياسى والدينى ذا الاثر البالغ فى التاريخ الاسلامى كله

وفى ذلك يقول « لامنس » :

« ان المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها اول الامر ، حتى اذا ظهرت فكرة التشيع فى الاسلام ، عادوا يطيلون الحديث عنها ، واخذت شهرتها تذيعوتنتشر على حين ظلت اخواتها وليس لهن ذكر ولا عنهن حديث »

ويرد احد الكتاب المسلمين ـ الاستاذ عمر ابو النصر ـ على هذا الزعم قائلا :

« فأما عدم ذكر مؤرخى السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرده ان مؤرخى السيرة انما كانوا يؤرخون للنبوة والاسلام ، ولم تكن النبوة والاسلام معلقين ببنات الرسول متصلين بهن ، خصوصا وانهن لم يخضن حربا ولا اندفعن فى معركة ولا كان لهن

من الشأن فى سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ الى ذكرهن والتبسط فى تاريخهن . ومن البداهة والحالة هذه الا يذكر المؤرخون من اخبارهن الا ما كان له كبير شأن او عظيم اثر – ص ٦٠ من كتاب فاطمة بنت محمد »

وهو رد لا ينفى زعم « لامنس » ، بل لعله اقرب الى ان يقرره ويؤيده . وكان الاستاذ ابو النصر مرجوا عندنا لان يدحض الفرية بما فى كتب السيرة والحديث عن فاطمة بصفة خاصة ، وهذا الذى جئنا ونجيء به من اخبارها فى حياة ابيها النبى ومكانتها لديه ، لم نأت به من عندنا ، ولا نقلناه عن مصادر متأخرة قد تظن بها الظنون وتحمل على انها من مخترعات الشيعة او مختلقات الرواة ، بعد ان دخلت الزهراء فى تاريخ الاسلام وشارك اسمها فى سيره واتجاهه اعنف مشاركة ، كلا وانما كان مرجعنا الاول هو ابن اسحق شيخ كتاب السيرة ، والطبرى عميد مؤرخى الاسلام المتقدمين وكتب الحديث الستة الامهات . ولا اذكر انى سقت هنا خبرا واحدا غير مأخوذ من هذه الاصول

وليس يغيب عنى ما قيـــل فى حاجة هذه المراجع الى التحرير والتوثيق ، ولا انا بجاهلة ما حف بها من ظلال لم تسلم من مثلها الآثار النقلية قط ، لكنى هنا انما ارد على الزعم القائل بان المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة ، تناسوا فاطمة كما تناسوا اخواتها ، ثم عادوا فآثروها باكبر العناية والاهتمام بعد ظهور التشيع

فهذه هى كتبهم بين يدى ، اقرا فيها وانقل منها ما انقل من اخبار « الزهراء » ثم لا ارى بى حاجة الى رد الزعم الأحمق باكثر مر هذا ، اللهم الا ان اعرض مثلا آخر من

تهافت هذه العصبة الحاقدة من المستشرقين ، حين مر بها حديث الحلية التى روى ان الرسول قال عنها : «لاهبنها احب اهلى الى » ثم دفعها الى حفيدته امامة بنت ابى العاص ابن الربيع . ولقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هـذا الحديث ، يريدون ان ينقضوا به كل ماتواترت به الاخبار من حب الرسول لابنته فاطمة ، واعشى الحقد بصيرتهم فحملوا خبر الحلية محمل الثقة التى لا يرتفع اليها ظن ولا تجوز عليها ريبة ، وتلقوا اخبار « فاطمة » بالتكذيب والاتهام ، مع ان راويهما واحد !

ولو رشدوا ، لما راوا فى امر الحلية سوى مظهر من مظاهر عطفه صلى الله عليه وسلم على حفيدته الطفلة التى حرمت من امها زينب ، والفتة كريمة من لفتاته التى طالما اسعدت النساء من اهله وعشيرته ، وسنجده صلى الله عليه وسلم فى موقف آخر ، يهدى حلة من استبرق ، فيقول لابن عمه على : « اجعلها خمرا بين الفواطم » فشقها « على » اربعة اخمرة ، احدها لفاطمة بنت محمد ، والثانى لفاطمة بنت اسد بن هاشم ، زوج ابى طالب وام بنيه على وجعفر وعقيـــل ، والثالث الفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت ابى طالب « ام هانىء » ، وفى رواية ، لفاطمة بنت شيبة بن ربيعة زوج عقيل بن ابى طالب

□

وندع هذا لنسال : لم استاثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عند ابيها صلى الله عليه وسلم ؟

وهو سؤال يعرض دائما لكل من يكتب عن الزهراء ،

اما متعصبو المستشرقين فاراحوا انفسهم كما راينـــا بجواب سهل قريب ، هو ان ما روى عن حب محمد لفاطمة انما اخترعته الشيعة بعد وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعشرات السنين وما هذا بمستغرب من المستشرقين فهكذا يلتوى تاريخ الاسـلام فى ايديهم ويصطبغ بصبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يبراون ـ ولا نحن نبرأ ـ من ضعف وهوى ، وان كنا فى الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الانسانية من جهود هؤلاء العلمـاء الذين نقدر ما اتيح لهم من صبر على البحث ، وداب فى الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا خير الثمر ، لو برئا ممـا شابهما من شوائب هذا الضعف البشرى ، وهيهات !

واحسب انهم لو حاولوا كظم حقدهم ليواجهوا موضوع حب الرسول لابنته « فاطمة » ، لاستطاعوا ان يصلوا الى نتائج اعمق وابعد من هذه التى وصلوا اليها ارتجالا من اقرب الطرق ، وربما اتيح لهم ان يربطوا بين هذا الحب للابنة الرابعة ، وبين ما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للاناث ، فهل كان الرسول فى حبه لفاطمة ، متأثرا بما كان يظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد ان سبقتها اخوات ثلاث ؟

لستاستبعد هذا ، فمحمد فى ابوته الرحيمةوانسانيته المهذبة ، اهل لان يغمر بحبه هذه الابنة التى شاء لها القدر ان تجىء حيث لا تلقى ترحابا ، واحق بان يحبوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس ـ ولو على سبيل الوهم ـ انها غير مرغوب فيها . ونحن الامهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية اوثالثة ، فكيف اذن يكون موقف الاب الكريم الذى اختير ليبعث

رسولا ؟ مثله بلا ريب من يذود عن طفلته تلك الظلال الكئيبة التى تحيط بمولد البنت الرابعة ، ويحميها من ذلك الاحساس المر الاليم الذى قد يكسر قلبها ويعقد نفسيتها

ولنا ان نقول بعد هذا ان تلك المكانة الخاصة لفاطمة عند ابيها ، لم تنقص حبه لاخواتها الثلاث ، ولنا ان نقول كذلك ان حظ مكانة الزهراء من حب ابيها صلى الله عليه وسلم قد ازداد بعد موت هؤلاء الاخوات ، ثم تضاعف بمولد الحسنين ، وانحصار ذريته صلى الله عليه وسلم فى نسل هذه الابنة الوحيدة التى بقيت له !

□

دخلت « فاطمة » على امها السيدة خديجة ، تحدثها ــ والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها ــ عما سمعت من دعوة أبيها لقومه أن يشتروا انفسهم ، فان أحدا لن يغنى عن احد من الله شيئا ، حتى فاطمة بنت محمد ، لن يغنى عنها ابوها النبى شيئا اذا لم تؤمن

وهي قد آمنت بالله وصدقت بنبيه ورسالته ، وباعت دنياها بالآخرة ، وللآخرة خير وابقى

ومرت الام الطيبة بيدها الرقيقة على جبين ابنتها الطفلة ، وغمغمت فى رفق :

ــ ماذا ستلاقين من بعدى يا صغيرتى ؟ لقد نلت حظى من الدنيا فانا هامة اليوم او غد ، واختاك زينب ورقية قد اطمأن بهما مكانهما فى كنف اكرم زوجين ، ولام كلثوم من سنها وتجربتها ما يغرى بشىء من الطمأنينة عليها ، واما انت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا فى مستهل الصبا ،

حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والالام

فردت فاطمة وهى تذكر اباها البطل :

ـ اطمئنى ، فلا بأس على يا اماه ، لتطغ قريش ماشاءت لها وثنيتها ان تطغى ، ولتمضين في اضطهادها للفئة المسلمة الى اقسى وافدح ما تستطيع ، فلقد طابت نفوسهم لاحتمال هذا العذاب الجليل ، و « فاطمة » اجدر بان تحمل منه ما يكافىء ما نعمت به من بنوتها للنبى ، واستئثارها بالحظ الاوفى من محبته واعزازه .

▭

واستجاب الله لها ، فامتحن ايمانها بأقسى ما يمتحن به مثلها ، فقد كان تعلقها بأبيها يجعلها تتعذب لما يلقى من فادح الاذى ، وتروع بالذى يكابده اتباعه من اضطهادمرير ، حتى لتكاد تحس بلسع الصخور الملتهبة التى كانوا يلقون عليها حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدنها اثر السياط التى كانت قريش تلهب بها من تقدر عليه من المستضعفين

وصحبت ابويها الى شعب ابى طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار المنهك سنين عددا ، ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت امهـا خديجة ، ثم هجرة ابيها الى يثرب ، بعد ان لم يبق له فى مكة مكان !

وعلى اثره هاجر«على»ابن العم ابى‌طالب ، وكان‌قدتمهل ثلاثة ايام فى مكة ، ريثما ادى عن النبى المهاجر ، الودائع‌التى كانت عنده للناس

وبقيت فاطمة واختها ام كلثوم ، حتى جاء رسول من ابيهما فصحبهما الى يثرب ، واغلقت دار محمد بمكة ، كما

اغلقت دور المسلمين فيها هجرة ، ليس فيها ساكن
ولم تمر رحلتهما بسلام : فما كادتا تودعان ام القرى وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال ، حتي طاردهما اللئام من مشركي قريش ، وباء « الحويرث بن نقيذ بن عبد ابن قصى » — وكان ممن يؤذى اباهما النبى بمكة — باثم اللحاق بهما حتى نخس بعيرهما فرمى بهما الى الارض
« السيرة ٤/٥٢ »
وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قدانهكتها الاحداث الجسام التى لقيتها قبل ان تمتلىء شبعا وريا ، وترك الحصار المنهك اثره فى صحتها وان زاد معنويتها قوة على قوة ، فلما نخس بها « الحويرث القرشى » فرمى بها واختها على اديم الصحراء الاوعث ، سارت بقية الطريق متعبة ، الى ان بلغت «المدينة» وما تكادساقاهاتنهضان بها ، فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمر السنوات وابوها الرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه فى العام الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الاكبر ، ويسميه مع النفر الذين عهد النبى الى امرائه ان يقتلوهم وان وجدوا تحت استار الكعبة
وكان على بن ابى طالب احق هؤلاء الامراء بقتل الحويرث وقد فعل !

▭

كان الرسول قد شرع فى بناء مسجده ومنزله ، حيث بركت ناقته القصواء عند وصوله الى دار الهجرة ، ونزل صلى الله عليه وسلم ريثما يتم البناء ، فى دار أبى أيوب الانصارى ، وهى الدار التى صارت من بعده الى مولاه

« افلح » فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام بألف دينار ، بعد ما خربت وتداعت جدرانها ، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة

وكان صلى الله عليه وسلم يشتغل فى بناء مسجده وبيته الجديد ، مما اثار همة المهاجرين والانصار ، فاقبلوا يتنافسون فى العمل وقائلهم يقول :

لئن قعدنا والنبى يعمل
لذاك منا العمل المضلل

فيجيبه المسلمون :

لاعيش الا عيش الآخره
اللهم فارحم الانصار والمهاجره !

ورؤى الرسول يومئذ وهو ينفض بيده الكريمة وفرة « عمار بن ياسر » وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللبن

وسمع على بن أبى طالب ينشد مرتجزا :

لا يستوى من يعمر المساجدا
يدأب فيه قائما وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه « عمار » وجعل يرتجز بها حتى تم البناء

ولم يكن البيت الجديد للرسول قصرا فخما ولا صرحا مشيدا ، بل كان حجرات بسيطة مطلة على فناء المسجد النبوى ، بعضها من حجارة مرصوصة ، وبعضها من جريد يمسكه الطين ، وكانت جميعا مسقوفة بالجريد

اما ارتفاعها فيقول الحسن بن على ، حفيد الرسول : كنت أدخل بيوت النبى صلى الله عليه وسلم وانا غلام مراهق ، فأنال السقف بيدى

وفى البخارى : ان بابه عليــه الصلاة والسلام كان يقرع بالاظافر ، يعنى : لا حلق له !

أما الاثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ بساطة وخشونة وتواضعا : كان سريره صلى الله عليه وسلم ، خشبــات مشدودة بالليف ، بيع زمن بنى امية ، بأربعة آلاف درهم

أما البيوت ، فلما توفيت زوجات النبى ، جاء كتاب عبد الملك بن مروان الى واليه بالمدينة ، يأمره ان تخلط الحجرات بالمسجد ، فضج اهل المدينة بالبكاء ، كيوم وفاته صــلى الله عليه وسلم

□

الى هذا المنزل الجديد المتواضع ، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة ، لترى أباها صلى الله عليه وسلم فى أعز موضع ، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام ، وآخى الرسول بين الانصار وبينهم ، ليذهب عنهم وحشـــة الاغتراب ، ويشد أزر بعضهم بعض

وتمت المؤاخاة قبل قدوم « فاطمة » من البلد العتيق ، ولعلها لو كانت بيثرب يومها ، لما استغربت أن ترى أباها صلى الله عليه وسلم يقف فى أصحابه فيقول :

« تآخوا فى الله اخوين اخوين »

ثم يأخذ بيد على بن ابى طالب ويقول :

« هذا اخى »

ويختار لعمه حمزة زيد بن حارثة ، ولعمه جعفر ــ وكان ما يزال غائبا بأرض الحبشة ــ معاذ بن جبل ، ولابى بكر

الصديق ، خارجة بن زهير الخزرجي ، ولعمر بن الخطاب ، عتبان بن مالك العوفى ، ولابى عبيدة بن الجراح ، سعيدبن معاذ ، ولعثمان بن عفان ، أوس بن ثابت أخا بنى النجار ، وللزبير بن العوام بن خويلد ، سلمة بن سلامة

وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ ، وذهب على بن ابى طالب بسيد البشر اخا !

ولن يمضى وقت طويل ، حتى نرى عليا ، صهرا لاخيه النبى ، وزوجا لأحب بناته اليه

▭

كانت « فاطمة » اذ ذاك قد قاربت عامها الثامن عشر ، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه ، متاثرة بنفورها القديم منه ، يوم انتزعوا اختها الحبيبة«زينب»من بيت أبويها ، وزفوها الى دار ابى العاص بن الربيع ، وفاطمة طفلة فى عامها الرابع

ولقد مضت الاعوام ، ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج ، وأعدتها فطرتها لان تستجيب لهذا الوضع الطبيعى الذى بلته كل انثى قبلها ، من حواء ، الى خديجة وزينب ورقية وأم كلثوم

وكانت الى ذلك كله ، تحس بابن العم ، على بن أبى طالب، قريبا منها فى المنزل الجديد ، وتلمحه يحوم حول ابيهـا الرسول وفى نفسه امر يكتمه لا يريد أن يفصح عنه ، وعلى لسانه كلمات يمسكهـا قبـل أن تمس شفتيه ، على أن « فاطمة » لم تكن بالتى يخفى عليها سر ابن العم ، فمنـذ بلغت سن الزواج وهى تحس بالهام فطرتها ووحى قلبها ،

ان «علياً» متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب فى سواها من بنات المسلمين

وكذلك هى : لم تشعر فى عالمها النفسى بمن هو اقرب اليها من «على» واعز موضعا ، وهو بعد اكثر من أخ عزيز وابن عم قريب ، فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة وذكاء وعزيمة ، ولا بين المسلمين جميعا من هو أسبق منه الى الاسلام او اقرب الى رسول الله

ولكنها مع ذلك اغلقت قلبها دونه كما اغلقته دون الرجال جميعا ، مؤثرة مكانها الى جانب ابيها الحبيب ، متشبثة بموضعها فى بيته الكريم ، فمنذ ماتت أمها « السيدة خديجة » ـ رضى الله عنها ـ وهى ترى نفسها ربة هذا البيت التى تحمل عبء ادارته ، وخليفة الام الراحلة فى الوقوف الى جانب البطل المجاهد ، تهيىء له راحة ومسكنا ، وقد بلغت فى ذلك المجال ما جعلها تظفر باجل كنية ، فتدعى « أم أبيها » !

وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الاعز موضعا سواه !

لكن الى متى ؟

هذا مالم تفكر فيه فاطمة بنت محمد ، أو لعلها فكرت فيه حينا ثم انصرفت عنه ، كيلا تفسد حاضرها بمايحتمل ان يأتى به الغد المجهول !

□

حتى دخلت « عائشة بنت ابى بكر » فى حياة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ زوجة وربة بيت ، فأحست « الزهراء » أن قد آن لها أن تنتقل من بيت أبيها راضية

أو كارهة ، لكى تخلى المكان لربته الشابة الذكية الحسناء !
ولا ارتاب فى أن الزهراء رضى الله عنها قد ذكرت أمها الراحلة طويلا ليلة زفت « عائشة » الى محمد ، بعد الهجرة بأشهر معدودات ، واخذت مكان خديجة فى داره ودنياه ، ولعل الزهراء بكتها احر بكاء فى ليلتها تلك ، ثم هون عليها الامر ان يجد أبوها ــ الذى تؤثره على نفسها ــ فى عروسه الحلوة ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة ، وما يسرى عن فؤاده بعض الشجن الذى أثقله زمنا طال حتى أوشك أن يبلغ خمسة اعوام

□

وزواج « أبى الزهراء » من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته ولا لاحد من قومه ، فهو صلى الله عليه وسلم قد خطبها قبل هجرته من مكة ، يوم سعت اليه « خولة بنت حكيم » متلطفة مترفقة تقول :
« يا رسول الله ، كانى اراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! »
ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضى فتخطب له سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر
وما كانت الزهراء لتكره ان يجد أبوها النبى من تسكن اليها نفسه ويرتاح لها فؤاده ، وانها لتعرف ما يحمل من أعباء الرسالة ومشاق الجهاد ، وما يكابده من محنة الغربة عن الوطن ، ومأساة الاضطهاد من قومه وعشيرته
وقد جاءت « سودة » قبل عائشة ، فشعرت فاطمة ــ كما لم يشعر سواها ــ ان الفراغ فى حياة النبى كزوج ، ما يزال كما كان قبل ان تجىء بنت زمعة ، فان الرسول لم

يتزوجها الا جبرا لخاطرها وعزاء لها عن زوجها « السكران ابن عمرو » الذى لم يكد يعود بها من مهجرهما فى الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة ، قد هدت المحن حيلها ، وطحنتها السنون الطوال العجاف

ولم يغب عن فاطمة ، ولا غاب عن سودة ، أن حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ، فلا عجب أن بقيت الزهراء « أم أبيها » فى مكانها الاول ،دون أن تشعر بأن وجود «سودة» يغنى عنها

اما حين جاءت « عائشة » فالامر جد مختلف !

فلا عجب ان لم يمض على دخولها بيت زوجها النبى أربعة أشهر ، حتى كانت « الزهراء » فى طريقها الى بيت على بن أبى طالب (الاصابة ١٥٧/٨)

▭

والواقع أن « عليا » كان يتلبث حتى تحين فرصةمواتية كهذه ، يستطيع فيها أن يطمع فى قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها الى بيت الزوجية

وطال انتظاره سنين عددا ، حتى اذا دخل الرســـول بعائشة الحبيبة ، خامره الرجاء فى تحقيق رغبته ، لكنه ظل محجما فترة ، لا يدرى بم يمهرها وليس فى يده مال .
ثم زاد احجامه ، حين بلغه أن أبا بكر وعمر ــ رضى الله عنهما ــ قد طلبا يد الزهراء ، فردهما أبوها صلى الله عليه وسلم فى رفق بالغ

وعرف خاصة اصحاب «على»بما يهمه ، فشجعوه على خطبة الزهراء ، وذكروا له قرابته من أبيها ، ومكانتـــه عنده

قال «على» منكرا يائسا :

« بعد ابى بكر وعمر ؟ »

اجابوه :

« ولم لا ؟ ووالله ما بين المسلمين ــ وفيهم ابو بكر وعمر ــ من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله ابوك ، ورعته امك فى بر نادر ، ثم نشأت فى كنفه وربيت فى بيته ، وكنت اسبق رجل الى الاسلام به »

وتشجع على ، واخذ طريقه الى ابن عمه ، حتى اذاجاءه حياه بتحية الاسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ، لا يذكر حاجته

وادرك صلى الله عليه وسلم ان اخاه وابن عمه وصاحبه، جاء لامر لا يقوى على الافصاح عنه ، فاقبل عليه يسأله فى تلطف :

ــ ماحاجة ابن ابى طالب ؟

اجاب بصوت خفيض ، وهو يغض من بصره :

ــ ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الرسول وما يزال على بشره وتلطفه :

ــ مرحبا واهلا !

ثم امسك لا يزيد ...

وطال صمتـــه ، فانصرف « على » حائرا قلقا ، لا يدرى بم يجيب اهله واصدقاءه الذين كانوا فى انتظاره ، يترقبون عودته براى الرسول

فلما الحوا عليه ، قال :

ــ ما ادرى والله شيئا : تحدثت الى رسول الله بالامر ،

فما زاد على قوله لى : مرحبا واهلا !
هتفوا جميعا :
ــ يكفيك من رسول الله احداهما !
ثم تركوه مستجد الامل ، حى الرجاء !

□

واقبل فى غد فوقف غير بعيد من الرسول ، وقال بحيث يسمعه عليه الصلاة والسلام :
« اردت أن اخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت : والله مالى من شىء ، ثم ذكرت صلتهوعائدته فخطبتها أليه »
فما راعه الا أن التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا :
ــ وهل عندك شىء ؟
أجاب على :
ــ لا ، يا رسول الله
لـكن الرسول ذكر أن « عليا » أصاب درعا من مغانم بدر ، فعاد يسأله :
ــ فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟
اجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبى ورعايته :
ــ هى عندى يا رسول الله
قال عليه الصلاة والسلام :
ــ فأعطها اياها
فانطلق « على » مسرعا ، وجاء بالدرع ، فأمره النبى ان يبيعها ليجهز العروس بثمنها
وتقـدم « عثمان بن عفان » فاشترى الدرع بأربعمائة

وسبعين درهما ، حملها « على » ووضعها امام الرسول ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعهـا الى « بلال » ليشترى ببعضها طيبا وعطرا ، ثم يدفع الباقى الى « أم سلمة » لتشترى جهاز العروس

ودعا الرسول صحابته فأشهدهم انه زوج ابنته فاطمة من على بن أبى طالب ، على اربعمائة مثقال من فضة ، على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، وختم خطبـة الزواج بمباركة العروسين الهاشميين ، والدعاء لهما بالذرية الصالحة

ثم قدم الى الضيوف وعاء تمر

□

وعلى هذا النحو من البساطة ، تمت خطبة الزهراء بنت النبى للامام على ، وعقدت اخطر مصاهرة عرفها الاسلام فى تاريخه الحافل الطويل

وتم عقد النكاح فى شهر رجب من السنة الاولى للهجرة، فلما أهل المحرم من السنة الثانية ، كان « على » قد وفق الى استئجار منزل خاص يستقبل فيه عروسه الزهراء.

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كمـا لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل ، وجاء حمزة ــ عم محمد وعلى ــ بشارفين فنحرهما واطعم الناس بمدينة الرسول

فلما تم الحفل انصرف القوم مهنئين ، ودعا الرسول « أم سلمة » فطلب اليها ان تمضى بالعـــروس الى بيت على ، ولينتظراه هناك

واذن « بلال » لصلاة العشاء ، فصلى النبى بالمسلمين

فى المسجد ، ثم مشى الى دار على ، حيث دعا بماء فقرا عليه بعض آى الذكر الحكيم ، ثم أمر العروسين أن يشربا منه ، وتوضأ بالباقى ونثره على راسيهما ، وهم بعد ذلك بالانصراف وهو يقول :

ـ اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما !

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الأب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها الامر بانه انما تركها وديعة عند أقوى الناس ايمانا واكثرهم علما وافضلهم اخلاقا واعلاهم نفسا ...

ثم أنصرف وطيف من « خديجة » يطيف بالعروس فى ليلتها الاولى ، ويحوم حولها ، ويسرى عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب ، وشجن لغياب الأم

واستجاب الله لدعاء نبيه فى تلك المناسبة السعيدة ، فكانت الزوجية المباركة التى شاء الاله أن تنحصر فى ثمرها ذرية نبيه المصطفى

□

كانت سن « الزهراء » عندما تزوجت ثمانية عشر عاما ، ولكن الهوى جمح بالمستشرق «لامانس» فخيل اليه أنها كانت أسن من ذلك بكثير ، وانما عمد بعض كتاب السيرة الى تأخير ميلادها ، كيلا يقال انها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها الى أن فاتت سن الشباب

ولعلنا لو سألناه : فلم لم يفعل كتاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ لم لم يجعلوا الاولى أصغر سنا ويضيفوا الى الاخرى عشر سنين او عشرين ، ليلائموا

بينهما وبين زوجهما النبى فى السن ؟ اقول : لعلنا لو سألنا « لامانس » مثل هذا السؤال لما حار جوابا ..

ولامانس ـ فيما أرجح ـ قد اعتمد فى ذلك على خلاف يسير الشأن فى تاريخ مولد الزهراء ، فاستغله الى ابعد حد فى ارضاء حقده ، وبدلا من ان يزن الروايات المختلفة ويعرضها على مقاييس النقد والتقويم ، نراه يضع اصبعه على قول نقله « المسعودى » بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية اعوام فحسب ، وآخر ذكره « اليعقوبى » بأنها ولدت بعد نزول الوحى . يضع لامانس اصبعه على هذا القول او ذاك ، ثم يصوب الطعنة المسمومة ، متجاهلا أقوال الكثرة من الثقاة الذين عليهم المعتمد فى هذا الشأن ، كابن اسـحاق وابن هشام والطبرى ، وهم يكادون يجمعون على ان مولدها قد كان قبل البعثة بخمس سنين .

والخلاف ـ كما قلت آنفا ـ يسير الشأن ، لاننا تعودنا ان نلقى مثله واكثر منه فى تاريخنا النقلى ، وبخاصة ذاك الذى يعتمد على المروى شفاها قبل عصر التدوين ؛ حيث لاتكاد تخلو ترجمة شخص من خلاف كهذا ، وبخاصة فى سنة مولده ، اذ المألوف الا تتجه العناية الى ترجمة شخص الا بعد ان ينمو وتظهر شخصيته ويبدو أنه جدير بالعناية ، وكان للمستشرق ان يأخذ من هذه الظاهرة العامة ماشاء ، لا ان يتمسك بجزئية بعينها ، ثم يخصها بالتجريح والطعن وسيىء التأويل

وما اظن لامانس بالذى يغيب عنه الموقف المنهجى حين يختلف الرواة ، لكنه تجاهل عامدا « ابن اسحاق » وهو مرجعنا الاول فى السيرة لانه أقرب كتابها عهدا بالرسول وبناته ،

وابن اسحاق لم يذكر فى مولد « فاطمة » غير قول واحد اقتصر عليه ، وهو السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم ايده بحكم عام هو ان بنات محمد ولدن جميعا قبل ان يبعث صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول اغفله لامانس كما اغفل من بعده اقوال الائمة من رجال الحديث والتقاةمن المؤرخين، ليتمسك برواية المسعودى ـ ثم اليعقوبى من بعده ـ حتى اذا استغلها ما شاء له التعصب والهوى ، واتكأ عليها فى الزعم بأن كتاب السيرة اخروا مولد فاطمة لكى ينفوا عنها تهمة البوار ، عاد فناقض نفسه وابطل الرواية المرجوحة التى اختارها ، بنقد طبيعى للمتن ، اذ يقضى القول بولادة فاطمة بعد البعثة ، ان تكون امها ولدتها وهى فى نحـــو الستين من عمرها !

الى ذلك الحد ، بلغ بمتعصبى المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل ، وكانوا فى غنى عن هذا كله ، ليصلوا الى ما شاءوا من تقريره من تأخر زواج فاطمة، مستندين الى قول ابن اسحاق نفسه ، فسن الثامنة عشرة جد متأخرة اذا قيست بسن أخواتها الثلاث حين تزوجن ، وهى أبعد تأخرا اذا قيست بسن أم المؤمنين « عائشة » بنت أبى بكر ، لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها ، فهى بنت الامين والطاهرة ، وهى أخت زينب ورقية وأم كلثوم اللواتى تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن فى مستهل الصبا ، وكانت بعد هذا كله ، أقرب الناس شبها بأبيها فى الخلقة ، وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة ، وانما عرف القوم زهـد الزهراء فى الزواج ، وتشبثها بمكانها الى جانب أبيها الرسول ، وقدروا

موضعها من البيت المحمدى وحاجته اليها بعد وفاة امها رضى الله عنها

ثم ، لم لا نقول ـ اذا لم يكف كل ما قدمنا ـ ان تأخر زواجها كان عن تهيب لها ؟ لقد بعث أبوها صلى الله عليه وسلم ، وهى وحدها التى لم تتزوج ، اذ كان عمرها خمس سنوات ، والناس بعد المبعث احد رجلين : اما كافر بنبوة محمد وهيهات أن يفكر فى مصاهرته ، وقد علمنا ما كان من سعى قريش الى أصهار محمد فى رد بناته الثلاث اليه كى يشغلوه بهن ، واما مسلم يؤمن بنبوة محمد ويصدق برسالته ، وقد عرفنا موقف المسلمين من نبيهم والى اى مدى كانوا يجلونه ويعظمونه ويفتدونه بالمهج والارواح ، فغير مستغرب الا يروا انفسهم كفئا لمصاهرته، وأن يغضوا الطرف عن « أم أبيها ، الزهراء » اجلالا وتهيبا

ولا يرد على هذا بأن « عثمان » رأى فى نفسه كفئا للرقية، فلقد قل فى أصحاب الرسول ـ بل فى قريش بعامة ـ مثل عثمان ثراء وشرفا وجاها ، وهو بعد قد طمع فى الزواج من بنت النبى ، بعد أن طلقها ابن أبى لهب كيدا وحقدا ، وليس الامر كذلك مع الزهراء

ونحن ـ حتى يومنا هذا ـ نرى بنات الاسر الكريمة يتأخر زواجهن فى انتظار الاكفاء وهم عادة القلة ، اذ القاعدة المضطردة هى انه كلما تميزت الفتاة لعلمها أو ثرائها أو عزتها ، قل أكفاؤها

ولم يكن « على » مع ذاك أول من طمع فى الزواج من « فاطمة » بعد تهيب وتردد ، فقد تسامى الى ذلك الشرف قبله ، صاحبا الرسول ابوبكر وعمر ، على ماروى «البلاذرى»

فى « انساب الاشراف » ، فردهما ابوها ردا كريما

ويابى لامنس بعد ذلك كله الا ان يعلل الزهد المزعوم فى « الزهراء » بأنها كانت محرومة من الجمال والذكاء والمرح (!!) ولست أطيل الوقوف عند هذا الزعم الاحمق ، بعد ان تهاوى كلام صاحبه وصار الى هباء .

▭

لم تكن حياة « الزهراء » فى بيت زوجها مترفة ولاناعمة ، بل كانت أقرب الى أن توصف بالخشونة والفقر ، وهى فى ذلك تختلف عن حياة اخواتها اللواتى أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادى ، فقد تزوجت « زينب » من ابى العاص وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية وام كلثوم أولا من ابني أبى لهب ذى المال الوافر ، ثم تزوجتا واحدة بعد الأخرى من « عثمان بن عفان » الواسع الغنى ، أما « على بن أبى طالب » فلم يك ذا حظ من مال مكتسب او موروث ، اذ كان أبوه على عظم مكانته وعلو شرفه ، قليل المال كثير العيال ، مما دفع ابن اخيه محمدا الى أن يقترح على عمه « العباس » التخفيف من اعباء أبى طالب ، بأن يأخذ كل منهما احد بنيه فيكفله عنه . وكان من نصيب « على » ان يختاره « محمد » دون بقية أبناء العم

وبعث « محمد » صلى الله عليه وسلم رسولا ، فكان « على » اول من آمن به صبيا ، اذ كان عمره عشر سنوات على مانقل ابن اسحق فى « السيرة ١/٦٢ » وهكذا اشترك «على» فى الحرب المقدسة بمجرد ان شب عن الطوق ، وشغل بالجهاد عن جمع المال ، وصرفته صحبة الرسول وهويواجه

المشركين ، عما كان يرجى ان يشتغل به من التجارة التى هى حرفة الرجال من قريش ، وصنعة الاشراف فى مكة ، وسبيل الثراء بالوادى الاجرد غير ذى الزرع ، فلاعجب ان رايناه يطلب يد « الزهراء » وليس فى يده مايمهرها به سوى درع افاءها الله عليه من مغانم « بدر » التى ابلى فيها « على » خير البلاء ، حتى لقد احصى ابن اسحاق ، الذين انفرد « على » بقتلهم يومئذ او شارك فيه ، بواحد وعشرين رجلا « السيرة ٢/٣٧٢ »

ولم يغب شيء من ذالك عن فاطمة حين عرض عليها ابوها صلى الله عليه وسلم طلب « على » يدها ، ولو صحت الرواية التى انفرد « البلاذرى » ـ فيما اعلم ـ بذكرها ، وهى ان الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد ابوها يزكيه :

« انه سيد فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، وانه اكثر الصحابة علما وافضلهم حلما واولهم اسلاما »

اقول لو صحت هذه الرواية ، لكانت مما يقال عادة فى مثل هذا الموقف ، لكن « لامنس » لم يدعها تمر دون ان يغمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام كرم الله وجهه ، حتى اذا احس ان الفقر لايمكن ان يعاب على الامام ، وقد نشأ النبى نفسه يتيما فقيرا ، راح يتخبط ليلتمس مغمزا آخر ، واخذ يبدى ويعيد عن ضآلة حظ « على » من جمال الصورة وحسن الشكل ! ولو راجع نفسه فسألها : كيف يستقيم مزعمه فى ان شخصية فاطمة رسمت باخرة ، واضيفت اليها الوان زاهية من صنع التشيع ، وهذا الذى ينقله من روايات عن الامام على ؟ لاستوقفه هنا ان مؤرخى الاسلام لم يضيفوا الى امام الشيعة من الثراء والجمال مايرفع قدره

عند أمثال لامنس ، بل انهم ــ بشهادته ــ قد ذكروا أنه كرم الله وجهه « كان فقيرا معدما قصيرا أفطس الانف دقيق الذراعين » دون ان يجدوا فى ذلك مايغض من شأنه ، أو ينقص مقداره حين يوزن بموازين الرجال ويقدر بمقاييس الابطال !

□

ونرجع الى حيث تركنا « الزهراء » تستقبل فى عامها الثامن عشر حياتها الجديدة ، فلا نرى أحدا من رواة المسلمين حاول أن ينفى عنها ماكانت تجده من شظف العيش، أو يجىء فى جهازها بسرير وثير وأثاث جميل ، بل نقرأ انها دخلت بيت زوجها بخميلة ، ووسادة حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين ، وشىء من العطر والطيب

وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع يستأجر لها خادما تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق ، فكان عليها ــ رضى الله عنها ــ ان تنفرد بهذا العبء الثقيل ، لكن « عليا » لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة مجهدة ، فحاول أن يساعدها فى بعض أعمال البيت ماامكنته ظروفه من ذلك ، اذ كان يخشى أن يستنفد العبء مابقى لها من قوة جسدية، بعد الذى كابدته ــ منذ عامها الخامس ــ من محنة الحصار ومشقة الهجرة ومتاعب الجهاد

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتهز كرم الله وجهه فرصة مواتية ، وقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباها النبى عاد من احدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا :

ــ لقد شقوت يافاطمة حتى اسليت صدرى ، وقد جاء

الله بسببى ، فاذهبى فالتمسى واحدة تخدمك

أجابته وهى تنحى الرحى جانبا فى تعب وكلال : افعل ان شاء الله

ثم لبثت ساعة حيث هى فى ساحة الدار ريثما استردت بعض قواها الذاهبة ، وقامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية ، فلما رآها صلى الله عليه وسلم هش لها وسأل :

ـــ ماجاء بك يابنية ؟

أجابت :

ـــ جئت لاسلم عليك !...

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله

ثم عادت من حيث أتت ، لتنبىء زوجها أنها استحت أن تطلب من أبيها شيئا

فقام كرم الله وجهه وصحبها الى الرسول ، وتولى عنها السؤال وهى مطرقة من استحياء

أجاب صلى الله عليه وسلم :

ـــ لا والله ، لا اعطيكما وادع اهل الصفة تتلوى بطونهم لاأجد ماأنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن

فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مستقلب الاب الحنون ، وشغلته نهاره كله !

وجن الليل وكان البرد قارسا ثقيل الوطأة ، فرقدا على فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط مايشعران به من قسوة البرد ، فاذا بالباب يفتح ، « ويقبل عليهما الرسول وقد انكمشا فى غطائهما مقرورين ، اذا غطيا راسيهما بدت أقدامهما ، واذا غطيا اقدامهما

انكشفت رءوسهما » . فهبا للقاء الضيف الكريم ، لكنه صلى الله عليه وسلم ابتدرهما قائلا :

ــ مكانكما !...

ثم اضاف فى رفق وهو يقدر حالهما :

ــ الا اخبركما بخير مما سألتمانى ؟

أجابا معا :

ــ بلى يارسول الله

قال :

ــ كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، واذا أويتما الى فراشكما ، تسبحان ثلاثا وثلاثين ، وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين

ثم ودعهما ومضى ، بعد أن زودهما بهذا المدد الالهى ، ولقنهما هذه الرياضة النفسية التى تغلب المصاعب وتهزم المتاعب

ولقد سمع « الامام على » بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات الرسول ويقول :

« فوالله ماتركتهن منذ علمنيهن ! »

سأله رجل من أصحابه :

« ولا ليلة صفين ؟ »

فأجاب مؤكدا :

« ولا ليلة صفين ! »

□

وتأبى سنة الله التى فطر الناس عليها ، الا تؤثر هــذه

الحياة الشاقة الكادحة على صحة « الزهراء » ومزاجها ، وقد كان وجودها رضى الله عنها منذ طفولتها فى صميم المعركة ، يميل بها عن المرح والابتهاج ، ثم احزنها موت أمها اشد الحزن ، وزادها وحشة وشجنا ، وكانت الى جانب ذلك كله مشغولة البال بأبيها النبى ، تفكر فيه على البعد والقرب ، وتتبعه قلبها فى غزواته ومعاركه ، وقد تأذن لها الظروف بمصاحبته الى ميدان القتال ، كما حدث فى موقعة « أحد » اذ رؤيت هنالك تضمد الجراح وتاسو الكلوم وتسقى المحتضرين من الشهداء

وليست هذه الظروف مجتمعة ، مما يعين على بهجة وانشراح ، ولعل الزهراء حاولت أن تتاسى بغيرها من نساء البيت النبوى ، وهى ترى مثلا ، أم المؤمنين عائشة ، تضفى على بيت زوجها اشراقا وتبث فيه حيوية وانسا ، وتلقى البطل اذ يعود الى سكنه ، بابتسامتها الوضاءة ودعابتها اللطيفة ومرحها الحلو .

وربما حاولت الزهراء كذلك ، أن تنحى عن بيتها الخاص ظلال الكآبة التى كانت تغشاه لفرط نزوعها الى ذكرى أمها ، ومزيد قلقها على ابيها وزوجها ، وعمق تأثرها بما لقيت ولقى أهلها والمسلمون من محن واضطهاد ، لكنما أعوزها ــ لكى تنجح فى محاولتها هذه ــ أن تجد الى جانبها زوجا لطيفا وديعا هينا لينا مرنا ، و « على » كرم الله وجهه لم يكن من هذا الصنف من الازواج ، بل كانت فيه شدة أقرب الى أن تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزما يكاد يكون صلابة ، واذا كانت رضى الله عنها فى حاجة الى يد حانية رقيقة ، تأسو جرحها وتنسيها مالقيت فى مستهل

صباها من متاعب وصدمات ، وتلطف أشجانها لفراق بيتها الاول الحبيب ، فقد كان « على » كرم الله وجهه لايقل عنها حاجة الى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التى تنفض عنه غبار المعارك التى خاضها منذ كان صبيا

فليس يروعنا إذن ، ماتحدث به الرواة من خلاف كان يقع احيانا بين الزوجين ، وقد يبلغ احياناسمع الابالرسول فيهتم له ويحاول جهده أن يغريهما بمزيد من الاحتمال

حدثوا انه صلى الله عليه وسلم ، رؤى ذات مساء وهو يسعى الى دار ابنته فاطمة ، بادى الهم والقلق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة : يارسول الله ، دخلت وانت على حال وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك !

فأجاب عليه الصلاة والسلام :

ـ وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين الى ؟

وحدث مرة أن ضاقت « الزهراء » بما تجد من شدة زوجها وصلابته ، فقالت له :

« والله لاشكونك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وخرجت ، و « على » فى اثرها ، حتى جاءت أباها فشكت اليه ما أنكرت من زوجها ، فتلطف الاب النبيل فى ترضيتها وحملها على الرفق بعلى واحتماله

قال كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته الى بيتهما :

ـ والله لا آتى شيئا تكرهينه ابدا !

□

لكنه كاد ياتى ـ غير متعمد ـ شيئا تكرهه فاطمة اشد الكره ، وتألم منه أفدح الالم

وأى شيء ابغض الى زوجة كالزهراء ، من أن يأتيها زوجها وابن عمها بضرة !؟

لقد هم « على » بالزواج على فاطمة ، وفى حسبانه انه انما يجرى على مالوف عادة قومه في الجمع بين زوجتين واكثر ، ويفعل ما اباحه له الاسلام من تعدد الزوجات ،دون أن يخطر بباله أن فى هذا ماتنكره بنت نبى الاسلام !

لكن الامر جرى على غير ماقدر « على » ...

فما كاد يهم بالزواج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، حتى راعه أن يرى أبا الزهراء يقبل على المسجد مغضبا ، ويخطب فى الناس منكرا على « ابن ابى طالب » أن يتزوج على فاطمة ، بنت عمرو هذا

لكن كيف والاسلام يبيح تعدد الزوجات ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان يجمع فى بيته يومئذ بين زوجات ثلاث أو أربع ، فيهن عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الاسلام ؟

كيف يحرم النبى ما احله الله ، وينكر على ابن عمه مالم ينكره على نفسه ؟

ليكن هذا الزواج مؤذيا لفاطمة ، أفلم تتعرض لمثله بنتا أبى بكر وعمر ؟

وهل يأبى النبى أن يجوز على ابنته مايجوز على كل مسلمة ، وهو القائل فى المرأة السارقة : « لو كانت بنت محمد فاطمة ، لقطعت يدها » ؟

وهل استثنى الاسلام من تعدد الزوجات ، بنات نبيه الذى بلغ رسالته ؟

ياله من موقف بالغ الدقة والصعوبة والحرج !

فالنبى يعلم حق « على » فى الزواج ولو على فاطمة بنت محمد

ومحمد ، فى ابوته الرحيمة وبشريته السوية ، يؤذيه ان تروع أحب بناته بضرة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية كهذه ، يعلم انها لاقبل لها باحتمالها

الا ليت « عليا » قد صبر على واحدة ، أسوة بابن عمه حين اكتفى بخديجة زوجة ، مدى ربع قرن من الزمان ! اذن لاعفى الاب النبى من الحرج ، واغناه عن ذلك الموقف الشائك المريب

وانى لاتمثله صلى الله عليه وسلم ، يرنو الى بنته الغالية وهى تترقب المحنة فى خوف وقهر ، فتكاد لفرط أساها ولوعتها تذوب من ضعف وكمد ، ويود بكل ما استطاع ان يدفع عنها ماتكره ، وان يحميها من الخوف الذى يقرح اجفانها ويروع أمنها ، ويؤرق لياليها ، لكن الامر يبدو معقدا ، فما كان لنبى أن يخون رسالته ، فيحرم ما احل الله !

وفى ظلمات الحيرة ، يلوح شعاع من الضوء ينير السبيل : أن عليا ذكر بنت « عمرو بن هشام المخزومى » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت « على » بين بنت رسول الله ، وبنت عدوه ؟

فعمرو هذا ، هو ابو الحكم بن هشام ، أو هو ابو جهل الذى لم ينس الرسول والمؤمنون ما اقترف من آثام فى اضطهاد الدعوة الاسلامية

هو عدو الله الذى قال لقريش : « يامعشر قريش ، ان محمدا قد ابى الا ماترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا وتسفيه احلامنا ، وانى أعاهد الله لاجلسن له غدا بحجر ما اطيق حمله ، فاذا سجد فضخت به رأسه ، فاسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم »

وهو هو القائل مستهزئا بالرسول :

« يامعشر قريش ، يزعم محمد ان جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وانتم أكثر الناس عددا ، افيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ؟ »

فنزلت فيه الآية :

« وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وماجعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا »

ثم هو هو القائل لمن سأله رأيه فيما سمعه من محمد :

« ماذا سمعت ؟ تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا كنا كفرسي رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ؟ فمتى ندرك هذه ؟ والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه ! »

وهو هو الذى كان اذا سمع برجل أسلم ، من ذوى الشرف والمنعة ، انبه وأخزاه ، وقال : « تركت دين ابيك وهو خير منك ؟ لنسفهن حلمك ، ولنقبحن رايك ، ولنضعن شرفك » . وان كان الذى أسلم تاجرا ، قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به

وهو هو ، الذى لقى حكيم بن حـــزام بن خويلد ، يحمل طعاما يريد به عمته خديجة فى محنة الحصار ، فتعلق اللعين به وقال : اتذهب بالطعام الى بنى هاشم ؟ والله لاتبرح انت وطعامك حتى افضحك بمكة . وأبى ان يطلقه حتى اشتبكا ونال أحدهما من صاحبه

وفيه نزل قوله تعالى :

« ان شجرة الزقوم طعام الاثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ! »

وهو هو الذى اعترض وفدا من النصارى جاءوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره من الحبشة ، فما جلسوا اليه واستمعوا له حتى آمنوا به . فلقيهم اثر انصرافهم أبو جهل فقال لهم : « خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم لتاتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه ؟! مانعلم ركبا أحمق منكم ! » السيرة ٢/٣٢

وهو هو الذى راى لقريش قبيل الهجرة ، أن تختار كل قبيلة منها فتى شابا جليدا نسيبا ، ثم يعطى سيفا صارما ، فيعمدوا جميعا الى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فيتفرق دمه فى القبائل جميعا « السيرة ٢/١٢٦ »

فلما هاجر الرسول ، غدا القوم وفيهم ابو جهل ،فوقفوا بباب أبى بكر ، فخرجت اليهم اسماء فقالوا لها :

« أين أبوك يابنت أبى بكر ؟ » اجابت :

ـ لا ادرى والله أين أبى

فرفع « أبو جهل » يده ـ وكان فاحشا خبيثا ـ ولطم خدها لطمة طرحت قرطها « السيرة ٢/١٣٢ »

وحين تهيأ الفريقان للقتال فى بدر ، بعث جيش قريش من يأتيها بنبأ العدو ، فرجع اليها محذرا ، ومشى حكيم بن حزام بن خويلد الى عتبة بن ربيعة يرجوه أن يرجع بالناس ، فكاد عتبة يستجيب له ، وسأل « حكيما » ان يذهب الى أبى الحكم ، فما يخشى « عتبة » المخالفة من سواه ، فلما سمع أبو جهل بهذا ، أبى الا القتال !

وقتل كافرا ملعونا ، وجىء برأسه الى « محمد » فحمد الله !

اتكون ابنة هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبى ؟
يأبى الرسول ذلك ! ويأباه الاسلام !
وانطلق صلى الله عليه وسلم الى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب فى صحبه قائلا :
« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى ان ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم، اللهم الا أن يحب ابن ابى طالب ان يطلق ابنتى وينكح ابنتهم، فان ابنتى بضعة منى يريبنى ما ارابها ويؤذينى ما آذاها ، وانى أتخوف أن تفتن فى دينها »
ثم ذكر صلى الله عليه وسلم صهره ابا العاص ـ وهو من بنى عبد شمس ، لامن بنى عبد المطلب كعلى ـ فاثنى عليه فى مصاهرته اياه احسن الثناء وقال :
« حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فاوفى لى ، وانى لست احرم حلالا ولا احل حراما ، ولكن والله لايجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدا »
ولقد ورد هذا الحديث فى الصحيحين : « البخارى ٢٩/٥٣٨ ، ومسلم ٤٤/٩٣ » ولكن احدا من الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه فى المدينة
فهل ترى يعيينا ان نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة ، تؤمن على قول النبى ، وترى فيه مظهرا جميلا من مظاهر بشريته التى طالما أصر على الاعتراف بها ، وآية ناطقة بأبوته الرحيمة التى كانت مضرب الامثال ،ودليلا جديدا من أدلة حبه لبناته ، هذا الحب الذى شاء الله أن يملأ به قلب النبى المختار ، فى بيئة وادت بناتها ؟!
أو هل يقصر خيالنا عن متابعة « على » وهو ينصرف من

المسجد اثر سماعه خطبة صهره النبى ، ويأخذ طريقه الى بيته بطىء الخطو ، مثقل القلب يفكر فيما كان !؟

اتراه حقا قد اراد الزواج على فاطمة ، من بنت عدو الاسلام ؟

كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل فى سبيل الدعوة المحمدية ؟ بل كيف هان عليه ان يروع أمن الحبيبة بنت الحبيب ، ويكسر قلبها بزواج كهذا لايمكن ان يؤول الا بالرغبة فى متاع حسى مادى ، لايجده لديها ؟

لقد كان لزواج « محمد » من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، والا فما باله صلى الله عليه وسلم ، قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة ، فلم يتزوج عليها حتى ماتت ، وقد بلغ الخمسين من عمره ، وحين كانت الاحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد فى سبيل الدين الجديد يملأ وقته ؟

الا فلتكن بنت أبى جهل من حظ غيره ، اما هو ، فليس بالذى يحبط جهاده الباسل ، فيستبدل بالنبى ، أبا جهل بن هشام صهرا ! وليس هو بالذى يؤذى نبيه وأباه وابن عمه ، فى أحب بناته اليه ، ولن يكون أبو العاص العبشمى ، قبل اسلامه ، أبر منه ببنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ولا أرعى فى مصاهرته للنبى ذماما !

□

وينتهى به المسرى الى البيت ، حيث يجد « الزهراء » فى وحدتها تجتر احزانها وتسامر همومها ، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه الى جانبها صامتا لايدرى ماذا يقول

واذ رآها تبكى ، همس معتذرا :

ـ هبينى اخطات فى حقك يافاطمة ، فمثلك اهل للعفو والمغفرة ..

ومضت قطعة من الليل قبل ان تجيب :

ـ غفر الله لك يا ابن العم

فلثم أطراف اناملها ، ثم راح يروى لها ما كان من حديث المسجد ، ويصف لها مشاعره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالاذى يلحق ابنته فاطمة ، وانكاره ان يتزوج على من بنت أبى جهل مع الزهراء ، وقسمه الا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد ابدا !

واغرورقت مقلتا « فاطمة » بالدموع تأثرا بحب أبيها ، وانفعالا بموقفه ، ثم قامت للصلاة !

□

وبقى سؤال ذو بال :

متى هم « على » بالزواج على الزهراء بنت النبى ؟

صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا الى موعد الخطبة ، على ما لذلك من اهمية وخطر ، لكنا نطمئن الى انها كانت فى الفترة الاولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلى ، وانما يغرينا به فهمنا لطبيعة الموقف ، وتقديرنا انه اقرب احتمالا ، حين كانت فاطمة وعلى فى مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يرض هو نفسه على احتمال ماكانت لاتزال تجد من حزن لفقد امها ، وشجو لفراق بيتها الاول !

وبهذا الاطمئنان ، نميل الى تحديد الحادثة على وجه التقريب ، فى العام الثانى من الهجرة ، قبل ان يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج

انقشعت السحابة التى ظللت أفق « الزهراء » حينا لانحدد مداه ، وعاد البيت أصفى جوا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على مايرجوان من تعاون ومودة : فاطمة فى الدار تقوم على خدمة زوجها ماوسعها الجهد ، وتتخلص شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعلى الى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية مايعينها على مشقة العيش الكادح فى جو « المدينة » الذى لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما الفه كثير من المهاجرين ، ويحاول قدر ما أطاق ، أن يترفق بها ويروض نفسه على شىء من اللين واليسر

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وعيون من يحبونها ، فوضعت بكرها « الحسن بن على » فى السنة الثالثة من الهجرة ، وسعى البشير الى ابيها النبى بالنبأ السعيد ، فخف اليها مشوقا فرحا ، وحمل وليدها بين ذراعيه ، وتلا الاذان فى مسمعه ، وذوقه لعابه الطهور ، ثم أقبل عليه يتأمله فى غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما الله صغيرين قبل سن الفطام !

واحتفلت مدينة الرسول بمولد « الحسن » وتصدق جده صلى الله عليه وسلم على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة . ثم راح يرقب تفتح الحياة فى هذه الفلذة الغالية منه ، فما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام ، حتى أردفته أمه الزهراء بشقيقه « الحسين » فى شهر شعبان ، سنة اربع من الهجرة

وتفتح قلب النبى لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حضن أم أبيها « الزهراء » ، ورأى فيهما امتدادا لحياته الخاصة على

هذه الارض ، ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الابوة التى يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضى اللهعنها

كانت سن الرسول اذ ذاك ـ فى العام الرابع الهجرى ـ سبعة وخمسين عاما ، وقد مضى على وفاة خديجة مايقرب من سبع عشرة سنة ، تزوج خلالها من خمس نساء : سودة بنت زمعة الكهلة الارملة ، وعائشة بنت ابى بكر الصبية العذراء ، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم سلمة ، هند بنتابىامية المخزومى زاد الركب ، وقد دخل بها فى شوال من السنة الرابعة للهجرة ، كما نقل الطبرى « ٤٢/٣ » وكان لها من زوجها الاول ، عبد الله بن عبد الاسد بن المغيرة ، ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب : سلمة ، وعمر ، ودرة ، وزينب . ومع ذلك ، لم يرزق النبى بولد من احدى هاتيك الزوجات الخمس ، وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله ، الا ان يكون عن طريق ابنته « الزهراء »

فلا عجب أن أقبل الرسول على سبطيه « الحسن والحسين » يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان ، ويفيض عليهما من عاطفة الابوة ماشاء له الحرمان من الولد ، على كثرة من تزوج من النساء

بل لاعجب ان دعاهما ابنيه ، فعن انس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم « كان يقول لفاطمة رضى الله عنها : ادعى لى ابنى . فاذا ما جاءا اليه شمهما وضمهما »

ونقل الترمذى فى (سننه) عن « أسامة بن زيد » انهقال : « طرقت باب النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لاادرى ماهو ،

فلما فرغت من حاجتى قلت : ماهذا الذى انت مشتمل عليه يارسول الله ؟

« فكشفه ، فاذا الحسن والحسين ، وقال : هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم انى أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما »

وكان اسماهما ـ رضى الله عنهما ـ نغمة حلوة فى فم أبى الزهراء ، يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وفيهما كان يجد انسه وسلوته عمن فقد من الابناء !

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى ، فحصر فى ولدها ذرية نبيه المصطفى ، وحفظ بها اشرف سلالة عرفتها العرب منذ كانت

كما كرم الله وجه « على » ، فجعل فى صلبه نسل خاتم الانبياء ، فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الابد

ولعل محمدا صلى الله عليه وسلم لو خير اى بناته تكون وعاء لنسله الطهور ، واى اصهاره يكون ابا لاهل البيت الشريف ، لاختار ما اختاره له الله !

فعلى أقرب أصهاره اليه مكانا وامسهم رحما ، فى عروقه يجرى الدم الهاشمى الاصيل ، وعند عبد المطلب يلتقى نسبه بنسب الرسول ، فكلاهما له حفيد !

وقد كان لمحمد عند أبى طالب منزلة الابن : كفله منذ بلغ الثامنة من عمره ، حتى اذا شب واستقل بحياته بعدزواجه من السيدة خديجة ، ضم اليه عليا ابن العم ابى طالب ، وانزله من بيته وفى قلبه منزلة الولد

وليس لابى العاص بن الربيع ، ولا لعثمان بن عفان ، مثل هذه الآصرة من الرحم ولا تلك المكانة من القربى ، وان كان

لكل منهما موضعه الذى لايسامى فى قريش ، ومكانه الذى لايجحد فى الاسلام

وكان «على» يعرف منزلته عند صهره النبى ويعتز بها الى حد جعله يسأل الرسول ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :

ــ أيهما احب الى رسول الله : ابنته الزهـــراء ، أم زوجها على

فأجاب الرسول فى أبتسامة لبقة :

ــ فاطمة أحب الى منك ، وانت أعز على منها !

وليس بمستغرب بعد هذا ، أن يعى الزمن من آيات حب الرسول للزهراء وعلى وبنيهما ، مانستطيع معه أن نتمثله صلى الله عليه وسلم وهو يرنو الى بيت صهره « على » كلما مر به ، وقلبه الكريم يخفق حبا وحنوا ، فاذا وجد من وقته سعة ، عرج على دار الاحبة ، فاسعد أهلها بعطفه ، واسبغ على حفيديه فيضا من حنانه الغامر !

وحدث فى احدى المرات ان الفى ابنته وزوجها وقـــد غلبهما النعاس ، والحسن يبكى ويطلب طعاما ، فلم يهن على الاب النبيل أن يوقظ العزيزين النائمين ، بل اسرع الى غنمة كانت تقف فى ساحة الدار ، فحلبها وسقى «الحسن» من لبنها حتى ارتوى !

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ، فدخل يقول لابنته معاتبا :

ــ أو ماعلمت أن بكاءه يؤذينى ؟

ولا اصف هنا ما كان لهذا الحب الابوى من اثر بعيد عميق فى اسعاد « فاطمة » التى أرهقها الحزن صغيرة ، وانهكها العبء شابة ، بل لاأصف هنا مدى مابعث فى حياتها

الزوجية التى عرفنا خشونتها وقسوتها ماديا ، من بهجة وانس واشراق . فلقد اسعد « فاطمة » أن تكون اما لهذين الولدين الاثيرين عند ابيها صلى الله عليه وسلم ، وارضاها ان تستطيع بفضل الله ، أن تهيىء لابيها الحبيب ــ بعد أن انتقلت من بيته ــ هذه المتعة الغامرة التى يجدها فى حفيديه الغاليين

ولم يكن على ــ كرم الله وجهه ــ اقل منها سعادة وغبطة ، فلقد سره ، بل ازدهاه ، أن تتصل به حياة ابن عمه النبى هذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبى الزكى ، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب ، وبنو ابنته الزهراء ، ويذهب دون الناس جميعا بمجد الابوة لسلالة النبى ، وآل بيته الأكرمين

▭

وتتابع الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الاولى فى العام الخامس من الهجرة ، فسماها جدها « زينب » تحية لذكرى خالتها الراحلة التى لم ينسها أبوها ، ولانسيتها اختها « فاطمة » قط !

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد « زينب » ، طفلة ثانية اختار لها الرسول اسم ابنته « أم كلثوم » ، كأنما كان يحس أنه ثاكلها بعد عامين اثنين !

وبذلك قدر للزهراء أن تحيى بابنتيها ذكرى اختيها زينب وام كلثوم بنتى النبى ، كما شاء لها الله أن يكون منها ولدا الرسول « الحسن والحسين » حين عز الولد

وحفظ الله تعالى لنبيه هذا القدر من سعادة الأبوة ، فلم يفجعه فى الزهراء ولا فى احد من بنيها حتى لحق ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالرفيق الاعلى

لقد مات ولداه « القاسم وعبدالله » صغيرين ، ثم رزقه الله على الكبر غلامه الثالث «ابراهيم» فى ذى الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة ، فقرت به عينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن الفرحة به لم تتم ، اذ ما لبث الهلال ان غرب، وثكل النبى ولده الثالث قبل ان يستكمل عامه الثانى ، وابوه اذذاك قد جاوز الثانية والستين من عمره !

وكذلك ماتت بناته الثلاث : زينب ورقية وام كلثوم ، وهن فى ربيع العمر ، وأرقدهن أبوهن الشاكل المحزون ، واحدة بعد الاخرى ، فى ثرى يثرب الذى ضم جثمان أبيه عبدالله ولما يزل محمد جنينا فى رحم امه « آمنة بنت وهب »

وعاشت له فاطمة ، كما عاش بنوها يملئون دنيا الرسول بهجة وانسا ، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التى آدها ثكل البنين والبنات ، ولم يبق لها الا هذه الابنة الحبيبة ، تعوض اباها عمن فقد ، وتعزيه عمن غاب ..

عاشت « الزهراء » ليظل محمد ما عاش يجد من يدعوه : « يا أبت ! »

وعاش ولداها ليظل النبى الانسان يسعد بترديد اللفظ العذب « ابنى »

وعاشت بنتاها زينب وام كلثوم ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين ، بعد ان أقام زمنا يفتقدهما ويمسك لسانه عن ندائهما !

ووقف التاريخ الانسانى يرقب مبهورا هذا النبى الانسان، فى أبوته الفياضة بأنقى الحب واصفى الحنان ، وأصغت الانسانية فى فخر واعتزاز ، الى ما تواترت به الانباء من

حديث ذلك الحب الكبير ، الذى يكشف عن جانب من عظمة الرجل المصطفى من السماء !

وما تزال حتى اليوم ، وحتى غد ، والى الأبد ، تتلو هذا الحديث ، وترى فيه آية من آيات الله ،الذى سوى ذلك البطل ، بشرا رسولا !

وهيهات لها ان تنسى مشهد النبى وهو يمشى فى اسواق المدينة حاملا احد حفيديه على كتفه ، حتى اذا بلغ المسجد وقام للصلاة ، وضعه الى جانبه فى رفق واقبل يؤم القوم ، فتأخذهم الحيرة والعجب اذ يطيل السجود على غيرالمألوف من عادته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

ـ يا رسول الله انك سجدت سجدة اطلتها حتى ظننا انه قد حدث أمر او انه يوحى اليك

فقال :

ـ كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت ان اعجله حتى يقضى حاجته !

او تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين ، عليهما قميصان احمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

ـ صدق‌الله : انما اموالكم واولادكم فتنة ! نظرت‌الى‌هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم اصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما !

او تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفى الحسين ، وقدماه على قدمه صلى الله عليه وسلم ، يرقصه قائلا : « ترق ، ترق » فما يزال الصبى يرقى حتى يضع قدميه

على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك ! فيفتحه ، ويقبله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « اللهم احبه ، فانى احبه ! »

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوما فى نفر من صحابته الى طعام دعوا اليه ، فاذا بالحسين فى السكة يلعب مع غلمان من اترابه ، فتقدم الرسول أمام القوم وبسط يديه محاولا أن يمسك بحفيده ، والغلام يفر هاهنا وهاهنا ، فما زال – عليه الصلاة والسلام – يضاحكه حتى اخذه ، فوضع احدى يديه تحت قفاه ، والاخرى تحت ذقنه ، ثم قبله وقال :

« حسين منى وأنا من حسين . احب اللهم من احب حسينا ! »

والناس من حوله خاشعون اجلالا ، يقول قائلهم : اراه صلى الله عليه وسلم يصنع هذا بحفيده ، فوالله ان لى ولدا وما قبلته قط !

فيرد النبى الانسان ، وقد انكر هذه الغلظة الجافية :

« من لا يرحم ، لا يرحم ! »

ويرخى الزمن للزهراء ، لتشهد أباها البطل وهو يغزو الجزيرة بالنور الجديد ويدنو من النصر المؤزر الذى وعده الله به والمسلمين ، وتمسى رضى الله عنها ذات ليلة ، وهى تتاهب للسفر الى مكة ، وقد ذاد الكرى عن عينيها قرب الأوبة الى الوطن الذى غابت عنه ثمانية أعوام ، فراحت تسامر زوجها الفارس وتستعيد واياه ذكريات صباهما الحلو الذى مضى وراح :

اترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين ، أم غيرها كر الغداة ومر العشى ، ومحت يد الحدثان من معالمها ما كان لهما بالامس مهدا ومرتعا ؟

ودار الأهل ، حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللا دارسا وخرابا بلقعا ؟

والكعبة الغراء ، اما يزال الحمام الابيض الجميل يرتع فى حماها آمنا ملء الحرية والطلاقة والحياة ، أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة فانكمش هنالك مكتئبا محزونا مهيض الجناح ؟

وملاعب الصبا ، اما تزال تذكر من رحل عنها من الأحباب ، أم نسيتهم على مر الايام وتطاول السنين ، فعادت لا تعرف منهم اليوم أحدا ولا ترد لسائل جوابا ؟

ومثوى خديجة ، وقبر أبى طالب ، وقبور غيرهما من الأهل والعشيرة ، أما تزال محتفظة بودائعها الغالية ، أم نبشها الطغاة الكفرة وبعثروا ما بها من رفاة الأعزة الراحلين ؟

□

واذ هما فى غشية من شجوهما يطرق الباب ، فينهض على — كرم الله وجهه — ليرى من الطارق بليل ، وتفتح « الزهراء » عينيها وما يزال فيهما بقية من خدر الذكرى ، فاذا أمامهما « أبو سفيان بن حرب » حامل لواء المشركين ، وزوج آكلة الأكباد التى صنعت ما صنعت بشهداء أحد ، ثم راحت تغرى قومها بنبش قبر « آمنة أم محمد » اشتفاء وحقدا

ويتكلم « ابو سفيان » فيذكر مجيئه الى المدينة لما بلغ قريشا تأهب « محمد » للمسير الى مكة ، فرأى من قوة الاسلام وضخامة استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، ما روعه . فدخل على ابنته « رملة ، أم حبيبة ، زوجة الرسول » فما كاد يهم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهة ان يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزونا حتى أتى النبى فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، فذهب الى أبى بكر ، ثم الى عمر ، يسأله أن يكلم له الرسول ، فأبى عمر قائلا : أأنا اشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد الا الدر لجاهدتكم به !

وصمت « أبو سفيان » ريثما استرد انفاسه ثم قال لابن ابى طالب :

ـ يا على ، انك امس القوم بى رحما ، وانى قد جئت فى حاجة فلا ارجعن كما جئت خائبا ، فاشفع لى الى رسول الله

فقال على :

ـ ويحك يا ابا سفيان ! والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع ان نكلمه فيه

فالتفت « ابو سفيان » الى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير الى غلامها «الحسن» الذىاستيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدى امه :

ـ يا ابنة محمد ، هل لك ان تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟

أجابت فى هدوء :

ـ والله ما بلغ بنى ذاك ان يجير بين الناس ، وما يجير

احد على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقام « أبو سفيان » لينصرف خائبا محسورا ، ثم تلبث لدى الباب برهة وقال فى انكسار :
ــ يا أبا الحسن ، انى ارى الامور قد اشــــــتدت على فانصحنى
قال على :
« والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك »
قال :
« أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ »
فصمت « على » يفكر لحظة ثم اجاب :
ــ لا والله ما اظنه ، ولكنى لا اجد لك غير ذلك
فانصرف « أبو سفيان » وقد استقر عزمه على أن يعمل بما اشار « على » ، واغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان فى عجائب القدر وتصاريف الايام ، حتى مضى شطر من الليل فناما يحلمــان بالأوبة المنتظــرة الى أم القرى : مقر الكعبة ، ومهد الصبا ، ومنزل قريش !

□

وسار النبى الى مكة فى عشرة آلاف من المسلمين ، ميمما شطر البلد الحرام الذى تسلل منه منذ ثمانية اعوام ولا احد معه الا صاحبه وحموه الصديق
وخرجت « الزهراء » فيمن خرج من آل الرســول ، لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين
ولم يفتها ان تلمح خلال النقع المثار ، تلك البقعة التى

كادت تلقى فيها حتفها وهى فى طريقها الى دار الهجرة ، مع أختها « أم كلثوم » ..

وهاجت شجونها للذكرى : اين ام كلثوم ، واين رقية ، وأين زينب ؟ لقد هاجرن جميعا من مكة ، لكن الى غير رجعة أو مآب ..

وهذه هى ، تعود وحدها ، وتخلفت شقيقاتها الثلاث ، ثاويات فى ثرى المدينة !

غير ان أطيافهن بقيت معها ، وهى تقترب من ام القرى ، فما انفكت فى غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب «مر الظهران » حيث عسكر النبى بجيشه ترقبا للمعركة الفاصلة

□

غير أن النهار لم يكد يولى ، حتى اقبل « أبو سفيان بن حرب ، قائد لواء المشركين » فبات ليلته بباب النبى انتظارا لأمره صلى الله عليه وسلم فى أهل مكة ، فلما تنفس الصبح دخل على محمـــد فأسلم ، ثم انطلق عائدا الى مكة فوقف بحيث يسمع وقال :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار ابى سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد الحرام ، ووقف الرسول على راحلته بذى طوى ، بين كبار الصحابة ، ثانيا راسه تواضعا لله على ما اكرمه ، حتى لتكاد الشعرات التى بين شفته وذقنه تمس الرحل

ونظم دخول جيشه الى البلد العتيق ، فقسمه فرقا على

راس كل منها أحد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد ابن عبادة فقال الرسول لعلى :

ـ ادركه فخذ الراية منه فكن انت الذى تدخل بها !

ودخل الرسول من « اذاخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له قبة هناك ، قريبا من مثوى « خديجة »

وصحبته اليها ابنته « الزهراء » وقد انساها الفرح الأكبر كل ما الم بها من شجن ، منذ مرت بالمكان الذى نخس فيه « الحويرث » راحلتها وهى مهاجرة من مكة ، فالقت بها على الارض

لكن اباها لم ينس !

وهذا هو يعهد الى امرائه من المسلمين الا يقاتلوا الا من قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وامر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة

وكان من هؤلاء الحويرث بن منقذ ، وقد تولى قتله زوج الزهراء

وسجد الرسول لله شاكرا

وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهى تصغى الى هتاف عشرة آلاف من المسلمين :

الله اكبر ، الله اكبر الله اكبر الله اكبر ، لا اله الا الله وحده ، نصر عبده ، واعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا اله الا الله والله اكبر ...

▭

ثم أوى البطل الظافر الى قبته ، حيث كانت «الزهراء» تنتظره هناك

حدثت أم هانيء بنت ابى طالب ـ وكانت زوجة لهبيرة ابن ابى وهب المخزومي ـ قالت :

« لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ، فر الى رجلان من بني مخزوم ـ قال ابن هشام : هما الحارث ابن هشام ، وزهير بن امية بن المغيرة ، السيرة ٤/٥٥ ـ فدخل على اخى على بن ابى طالب ورآهما فقال : والله لأقتلنهما . فاغلقت عليهما باب بيتى ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها اثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل اخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ، ثم انصرف الى فقال : مرحبا واهلا يا أم هانيء ، ما جاء بك ؟ فاخبرته خبر الرجلين وخبر على ، فقال صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من اجرت ، وامنا من امنت ، فلا يقتلهما » . السيرة ٤/٥٥

واستراح الرسول برهة ريثما اطمأن الناس اثر موجة الفتح الدافقة ، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة . فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه امر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب فى الناس خطبة الفتح ، ثم قال :

« يا معشر قريش ، ما ترون انى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »

واقبل المساء رقيقا نديا بعد نهار حار ، حافل بالحركة والضجيج ، فضمت « ام القرى » جناحيها على ابنائها المهاجرين العائدين ، وعلى من نزل معهم من الانصار وبقية

المسلمين ، وسهرت السماء ترعى ذلك الحشد الضخم الذى لم تشهد قط مثله حول قائد نبى ، وطافت الملائكة بحزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان

وهناك كانت « فاطمة » غير بعيدة من أبيها البطل ، ترقد ساهرة فى فراشها ، يقظى لا تنام

كم شاقها فى ذلك الليل الساجى ان تتمثل امها خديجة وهى تطل من علاها على حبيبها النبى فى يومه الأغر الميمون ؟!

وكم شجاها ان تتمثل شقيقاتها الثلاث الراقدات بيثرب ، تسرى أرواحهن الى البلد العتيق الذى لم يكتب لهن رجعة اليه ، فتطيف بمن بقى من الأهل والأحباب وتشاركهم فرحة النصر المؤزر ؟!

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة فى البيت السعيد ، حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو !

وكم استهواها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى ، حتى تسمع صوت « بلال » يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم الأقدس ، فيخشع الكون لجلال الدعاء ، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين الى المسجد الحرام ، ليؤدوا للمرة الاولى فى تاريخ الاسلام ، فريضة الصبح فى البيت العتيق المطهر من الأوثان !

وقال « على » وهويتهيأ للخروج الى صلاة الصبح :

ــ أما نمت يا أم الحسن ؟

أجابت وقد غلبها التأثر :

ــ بل اردت أن استمتع بعودتنا الظافرة وانا كاملة اليقظة ، وكانى اشفق اذا نمت ، أن يكون الامر كله حلما فى الكرى

ثم قامت تصلى ، واغفت قليلا بعد أن طال بها السهر

□

واصبحت تمنى نفسها بالعودة الى دار مولدها ، ومرتع صباها وصبا « على » ربيب النبى ، ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على أثر الهجرة الى ملك « عقيل بن أبى طالب » ولم يشأ الرسول أن يستردها منه

وتساءلت الزهراء : ترى أى دار يختار أبى لتكون لنا فى مكة منزلا ؟

وكذلك تساءل الانصار ، وقد ظنوا ان الرسول مقيم بمكة ، لما رأوا من ابتهاجه صلى الله عليه وسلم باسلام قريش ، وحرصه على تألفهم ، وغبطته بالرجوع الى مكة بعد طول اغتراب

وقال قائلهم :

« لقد لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ! »

وانشد شاعرهم « حسان بن ثابت الانصارى » يعاتب الرسول على ايثاره قريشا وقبائل العرب بالعطاء والفىء دون الأنصار :

وات الرسول فقل : يا خير مؤتمن
للمؤمنين اذا ما عدد البشر

علام تدعى « سليم » وهى نازحة
قدام قوم همو آووا وهم نصروا ؟

سماهم الله انصارا بنصرهم
دين الهدى وعوان الحرب تستعر

وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا
للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا

والناس الب علينا فيك ، ليس لنا
الا السيوف واطراف القنا وزر

فما ونينا ، وما خمنا ، وما خبروا
منا عثارا وكل الناس قد عثروا !

وبلغ الصوت مسمع « فاطمة » كما بلغ مسمع كل من فى مكة ، فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده ، واشفقت من الموقف الصعب ، وان اطمأنت الى أن أباها صلى الله عليه وسلم سوف يجد منه مخرجا

لكن اى مخرج ؟

لم تدر « فاطمة » على التحديد ، حتى سمعت اباها يسأل « سعد بن عبادة » وقد شكا له ما تجد الأنصار :

ــ فأين انت من ذلك يا سعد ؟

اجاب الرجل :

ــ يا رسول الله ، ما انا الا من قومى

فلم تبد على النبى العربى بادرة ضيق أو ضجر ، بل عطف على صاحبه وطلب اليه أن يجمع له قومه الأنصار ، فلما فعل « سعد » ، خرج اليهم الرسول فحمد الله واثنى عليه ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها على فى انفسكم ؟ الم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ »

أجابوا :

« بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل »

قال :

« الا تجيبوننى يا معشر الانصار ؟ »

قالوا مشفقين :

« بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل »

فما راعهم الا ان قال النبى الكريم :

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم : اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ! أوجدتم يا معشر الانصار فى انفسكم ، فى لعاعة ـ بقلة خضراء ناعمة ـ من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟ الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت شعبا لسلكت شعب الانصار ! اللهم ارحم الانصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! »

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم ، وهتفوا بملء ايمانهم : رضينا برسول الله قسما وحظا !

وكذلك بكى اهل مكة ، وقد راوا الرسول يوشك ان ينصرف راجعا الى دار الهجرة التى اختارها منزلا ومقاما

وراحت « الزهراء » تودع دار الصبا ، وتزور قبر « خديجة » قبل أن يحين الرحيل !

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر : جاءتها فى شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع أبيها الى مدينة الانصار ، فى أخريات ذى الحجة من العام نفسه

لكأنما كان الامر كله كما قالت فاطمة فى الليلة الاولى بعد الفتح ، حلما فى الكرى أو رؤيا منام

وقد امتد الحلم الهنىء عامين ، سعدت فيهما « الزهراء » بصحبة أبيها تستجلى طلعته البهية فى الغدو والآصال ، وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيها وزوجها ، ما شاء الله لها

ان تنعم . وقد أتيح لهـا فى تلك الفترة ان تسترد بعض ما ذهبت به الصدمات الاولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيها ـ احفاد الرسول واحبابه ـ تاركة شئون الدار لخادم جاء بهـا « على » بعـد ان ايسر بما ناله من غنائم الفتح والنصر !

▭

ثم كانت اليقظة المروعة !

شكا أبو الزهراء صلى الله عليه وسلم من مرض الم به فى ليال بقين من شهر صفر فى السنة العاشرة ، فحسب آل البيت والمسلمون انها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون ان يجرؤ احد على الظن بانه مرض الموت !

غير أن « الزهراء » وحدها لم تكد تسمع بشكوى ابيها النبى حتى اجفلت وكانما لسبعتها نار !

ذلك انها ذكرت حديثا أسر به صلى الله عليه وسلم اليها منذ ايام ، وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند أم المؤمنين عائشة ، فلما رآها أبوها مقبلة ، اشبه احد به سمتا وهديا على ما وصفت عائشة ، هش للقائها قائلا : «مرحبا بابنتى»

ثم قبلها واجلسها الى يمينه واسر اليها انه يحسب ان قد حان اجله ، فلما بكت هون عليها بقوله :

« وانك أول أهل بيتى لحوقا بى » ثم أضاف : « الا ترضين ان تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ »

فسرها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت عائشة وقالت : « ما رأيت كاليوم فرحا أقرب الى حزن ! » ثم سألت الزهراء حين سنحت فرصة ، عما أسر به الرسول اليها . فأجابت أم ابيها :

« ما كنت لأفشى على رسول الله سره ! »

وانصرفت يومئـــذ الى دارها ، وقد رد اليهـا بعض طمأنينتها ان رات أباها صلى الله عليه وسلم صحيحا معافى

فلما بلغها بعـد أيام أنه يشكو ، ساورها قلق مشوب بالخوف ، وأسرعت الى بيت أبيها وهى تحس أن قلبها قد سقط من موضعه فى صدرها

وراته يتحامل على نفسه ، ويتجمل بالصبر ، ويدور على نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته ، حتى اذا بلغ بيت « أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية » تتام به وجعه فدعا زوجاته اليه واستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة

واقامت « الزهراء » الى جانبه تخدمه وتسهر عليـه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء والابتهال

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه وهو يقول : واكرباه !

فخنقتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :

« وا كربى لكربك يا أبتاه ! »

فرد عليها هو يرنو اليها فى عطف وحنو : « لا كرب على ابيك بعد اليوم ! »

ثم حم القضاء ، ولحق محمـــد بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده يتيمة حزينة ، لا تجد الى العزاء سبيلا !

□

واذهلها المصاب الفادح ، فما افاقت من غشيتها الا وقد تمت البيعة « لأبى بكر الصديق » فى السقيفة ، ولما يكد يمضى على وفاة الرسول غير ثمان واربعين ساعة فحسب !

وجمعت كيانهـا الممزق ، وتحـاملت تسعى الى قبر

الحبيب وما تقوى قدماها على حملها ، حتى اذا بلغته اخذت قبضـــة من تراب القبر فأدنتها من عينيها اللتين قرحهما البكاء ، ثم راحت تشمها وهى تقول متفجعة :

ماذا على من شم تربة احمـــد
الا يشم مدى الزمان غواليـــا ؟
صبت على مصـــائب لو انهـــا
صبت على الايام عدن لياليـــا !

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت نياط قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين اناملهـــا فى حركة يائسة ، ثم تحدق فى يديها الفارغتين ، وتمضى ، كمن فرغت من الدنيا !

واتبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى اذا بلغت دارها استأذن عليهـــا « انس بن مالك : خادم ابيهـــا النبى » وراح يسألها الصبر الجميل

قالت له معاتبة :

ـ كيف مكنك قلبك أن تسلم للارض جثة رسول الله ؟

فشهق بدمعه دون ان يجرؤ هو او سواه على أن يعاود الحديث معها فى الصبر والعزاء !

الصبر والعزاء ؟ كيف وكل مصاب بعد مصابها لم ! ؟

□

ودخل على اثره زوجها « على » كرم الله وجهـــه ، وفى صحبته رجال من بنى هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها بالذى كان من امر البيعة

أهناك من هو أحق بالخلافة من على ربيب النبى ، وابن عمه ابى طالب وزوج ابنته الزهراء ، وابى الحسنين ريحانتى

الرسول ، واول الناس اسلاما ، واطولهم فى الجهاد باعا ، وفتى قريش شجاعة وعلما ؟

وامسكت « الزهراء » صامتة لا تعقب ، ومضت ايام وهى فى عزلة عن الناس ، لا تنشط للنضـــال عن ميراثهـــا الذى اباه عليها ابو بكر ، وهل ابقى الحزن لها من قوة تسعفها على نضـال ؟

وكانت بحيث تظل منطوية على جراحها وحزنها ، او لم يدعها الواجب ان تؤدى حق زوجها وولديها عليها ، فتسعى فى رد الامر الى اهل بيت الرسول

وحملها « على » فوق دابة ، وخرج بهـــا ليـــلا فطافت بمجـــالس الأنصـــار مجلســـا مجلســـا ، تسألهم أن يؤيدوا ابا الحسن فيما يطلب من حق جحد

اجابوا جميعا :

« يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لأبى بكر ، ولو أن زوجك وابن عمك سبق الينا لما عدلنا به أحدا »

فكان الامام يقول :

« أفكنت أدع رسول الله فى بيته ولم أدفنه ، واخرج انازع فى سلطانه ؟ »

وتردف فاطمة :

« ما صنع ابو الحسن الا ما ينبغى ، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم »

□

ورجعت الى بيتها فلزمته ، فما راعها حين اصبحت الا ضجة قد علت قريبا من الباب ، وتناهى اليها صوت « عمر »

يحاول ان يدخل ، وهو يقسم منذرا ، ان سوف يحمل «عليا» على البيعة اتقاء الفتنة وخوفا من تفرق كلمة المسلمين وانتشار قواهم . فصاحت الزهراء بملء لوعتها :

« يا أبت رسول الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن ابى قحافة ؟ »

فضج الناس بالبكاء ، ومضى « عمر » محزونا مغلوبا على أمره ، فأتى « أبا بكر » وساله ان ينطلق معه الى « الزهراء » لعلهما يحاولان استرضاءها

واستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، حتى جاء « على » وادخلهما فسلما ، لكنها اشاحت بوجهها عنهما واستدارت الى الحائط معرضة مغضبة

واستطاع « ابو بكر » رضى الله عنه ان يجد صوته ويقول :

ــ يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله احب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات ابوك انى مت ولا ابقى بعده ، افترانى اعرفك ، واعرف فضلك وشرفك ، وامنعك حقك وميراثك من رسول الله ، الا انى سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركنا صدقة ؟

فقالت فاطمة :

« ارايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتعملان به ؟ »

اجابا بصوت واحد : نعم

قالت : نشدتكما الله ، الم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن احب

فاطمة ابنتى فقد احبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد ارضانى ، ومن اسخط فاطمة فقد اسخطنى ؟

اجابا : بلى ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم

قالت : فانى أشهد الله وملائكتـه انكما اسخطتمانى وما ارضيتمانى ، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه

فارتاعا لما سمعا ، وخرج ابو بكر الى النـاس والدمع ينساب من مقلتيه ، فسألهم أن يقيلوه من بيعتهم ، لكنهم أبوا حتى لا تكون فتنة !

□

ولا يذكرالمؤرخون ـ فيما قرات ـ أن الزهراء قد حاولت بعد ذلك أن تسترجع ما فات ، وانما الذى وعاه التاريخ انها اسلمت نفسها للحزن ، فلم تر قط منذ مات ابوها صلى الله عليه وسلم ، الا محزونة باكية

وعز العزاء ، وغلب الصبر ولم يبق لها من رجاء الا ان تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل

وما اسرع ما لحقت به !

اصبحت يوم الاثنين ، الثانى من رمضان سنة احدى عشرة ، فعانقت بنيها وملأت عينيها منهم ، ثم دعت اليها « أم رافع مولاة ابيها عليه الصلاة والسلام » فقالت لهـا بصوت واهن خفيض :

ـ يا امه ، اسكبى لى غسلا

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها جددا كانت قد نبذتها حدادا ، ثم قالت لأم رافع :

« اجعلى فراشى فى وسط البيت »

فلما فعلت ، اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تتهيأ للقاء ربها ، ولقاء أبيها الحبيب
ثم اغمضت عينيها ونامت !
وقام « على » فاحتملها باكيا ، وذفنها بالبقيع ، ثم ودعها وعاد محزونا الى صغاره ، والى البيت الذى أوحش من بعد « الزهراء »
وبات المسلمون محزونين ، بعد ان شيعوا الى القبر آخر بنات النبى ، ولما تمض ستة اشهر على وفاته
وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن فى غير هذا العالم ، فضم ثرى يثرب جثمان فاطمة كما ضم جثمان أبيها صلى الله عليه وسلم واخواتها الثلاث : زينب ورقية وام كلثوم رضوان الله عليهن
وطوى القدر الصفحة الاولى من حياة الزهراء ، ثم ما لبث ان عاد بعد حين الى الكتاب التاريخى الحافل ، ليملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبيين ، وخدعة الدعوة العباسية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف بذلك كله من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من بعيد الآثار فى حياة العقيدة الاسلامية ، وفى التاريخ المذهبى والسياسى للمسلمين !

فهرس

صفحة

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)

ولدت فى ٦ نوفمبر ١٩١٣ بمحافظة دمياط، حصلت على ليسانس اللغة العربية ١٩٣٩، الماجستير ١٩٤١ والدكتوراه ١٩٥٠.

- تبوأت رئاسة قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بكلية الآداب جامعة عين شمس ٦٢ - ١٩٧٢، وأستاذاً زائراً فى عدة جامعات عربية، ومن أشهر كتاب الأهرام حاليا.

- من انتاجها الغزير: التفسير البيانى للقرآن الكريم، تراجم سيدات بيت البني، الإسرائيليات فى الغزو الفكرى، رسالة الغفران، الخنساء، الإعجاز البيانى للقرآن الكريم وغيرها، ومن أدبياتها: سر الشاطئ، صور من حياتهن وغيرها من البحوث والدراسات.

- حصلت على عديد من [illegible] فى مصر والعالم العربى ومنها [illegible] مع اللغة العربية عامى ١٩٥٠ [illegible] زة الدولة التقديرية فى الآداب ١٩٧٨ [illegible] ولازالت تتوالى اسهاماتها الشعرية [illegible]

